برنامج الدَّرس الواحد الخامس
الدَّرس (١)، /١٤٢٧

تطريز

فضيلة الشيخ صالح بن عبد الله العصيمي
حفظه الله تعالى

فوائد مستنبطة

من قصة يوسف عليه الصلاة والسلام

للعلامة عبد الرحمن بن ناصر ابن سعدي

المتوفى سنة ١٣٧٦ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ

النُّسخة الإلكترونيَّة (الأولىٰ)

الشيخ لم يراجع التفريغ

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّنا، وأشهد أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وحده لا شريك له وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد؛ فهذا هو **الدرس الأول** من برنامج **الدرس الواحد الخامس**، والكتاب المقروء فيه هو «فوائد مستنبطة من [سورة] يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ» للعلامة ابن سِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ.

وقبل الشروع في إقرائه لا بد من ذكر مقدِّمتين اثنتين:

المقدِّمة الأولىٰ: التَّعريف بالمصنِّف؛ وتتضمّن ثلاثة مقاصد:

المقصد الأول: جرّ نسبه؛ هو الشيخ العلامة القدوة عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السِّعدي، بكسر السّين المشدّدة كما هو المسموع من تلاميذه وأهل بيته، يُكنىٰ بأبي عبد الله، ويعرف بابن سِعدي نسبة إلىٰ أحد أجداده.

المقصد الثاني: تاريخ مولده؛ وُلد في الثاني عشر من محرّم الحرام سنة سبعٍ بعد الثلاثمائة والألف.

المقصد الثالث: تاريخ وفاته؛ توفّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قبل طلوع فجر يوم الخميس الثالث والعشرين من جمادىٰ الآخرة سنة ستٍّ وسبعين بعد الثلاثمائة والألف (٢٣/ جمادىٰ الآخرة/ ١٣٧٦)، وله من العمر تسع وستون (٦٩) سنة ورَحِمَهُ ٱللَّهُ رحمة واسعة.

المقدمة الثانية: التعريف بالمصنَّف؛ وتنتظم في ثلاثة مقاصد أيضا:

المقصد الأوّل: تحقيق عنوانه؛ نشر هذا الكتاب في حياة المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وتحت نظره باسم «فوائد مستنبطة من قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ»، ثم أعاد نشره أحد خواص تلاميذه، وهو الشيخ محمد بن سليمان آل بسام، معتمدا علىٰ نسخة خطية حملت الاسم المتقدّم أيضا.

المقصد الثّاني: بيان موضوعه؛ من عنوانه المتقدِّم يقف المطالع علىٰ موضوع هذا الكتاب، فهو فوائد مستنبطة من قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، والمراد بالفوائد المستنبطة: المسائل المستخرجة من سردها الكائن في سورة يوسف من القرآن الكريم.

المقصد الثّالث: توضيح منهجه؛ رتب المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الفوائد في مقدمة واثني عشر فصلا، وصدّر المقدمة ببيان معنىٰ العبرة، والإشارة إلىٰ طرفٍ متعلِّق بعلم تعبير الرؤيا، وذكر تعبير يعقوب لرؤيا ابنه يوسف، ثم فرّق بقية الفوائد في فصول متتابعة ابتغاء التسهيل علىٰ المتلقي بتدريج طريق التلقي.

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وصلىٰ الله علىٰ محمد وآله وصحبه وسلم.

أما بعد، فهذه فوائد مستنبطة من قصة يوسف صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلىٰ جميع الأنبياء والمرسلين، فإن الله تعالىٰ قصها علينا مبسوطة، وقال في آخرها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١]، والعبرة ما يعتبر به ويعبر منه إلىٰ معان وأحكام نافعة وتوجيهات إلىٰ الخيرات وتحذير من الهلكات؛ وقصص الأنبياء كلها كذلك؛ ولكن هذه القصة خصها الله بقوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾ [يوسف] فيها آيات وعبر منوعة لكل من يسأل ويريد الهدىٰ والرشاد، لما فيها من التنقلات من حال إلىٰ حال، ومن محنة إلىٰ محنة، ومن محنة إلىٰ منحة، ومنه ومن ذلة ورق إلىٰ عز وملك، ومن فرقة وشتات إلىٰ اجتماع وإدراك غايات، ومن حزن وترح إلىٰ سرور وفرح، ومن رخاء إلىٰ جدب، ومن جدب إلىٰ رخاء، ومن ضيق إلىٰ سعة. إلىٰ غير ذلك مما اشتملت عليه هذه القصةُ العظيمة، فتبارك من قصها ووضحها وبينها.

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في صدر هذه الرسالة مقصوده من تصنيفها وأنها أشتملت علىٰ فوائد مستنبطة من قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فإنّ الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ قصّها علينا في القرآن الكريم في سورة مفردة سُميت باسم يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ثم ختمها الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بقوله في آخرها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، وقد بيّن الرب سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في هذه السورة عظيم العناية بها في مقامين:

أحدهما: في مُقدمِها إذ قال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف:٣].

والثاني: في آخرها إذ قال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

فذكر هاذين المقامين للبدأ والختم يوجب العناية في هذه السورة لما فيها من الفوائد العظيمة، وقد ذكر المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ أنها اشتملت علىٰ كونها عبرة لأولي الألباب، ثم بين أن العبرة هي ما يعتبر به ويُعبر منه إلىٰ معانٍ وأحكام نافعة، يعني أن العبرة هي: ما يُتعض به وتوجبُ هذه العضة أن يتوصل العبد إلىٰ معانٍ وأحكام نافعة وتوجيهات إلىٰ الخيرات.

وهذه السورة العظيمة قد اشتملت علىٰ فوائد جليلة ذكر المصنف طرفا منها، وإلا فإن الإحاطة بها

تضيق عن مثل هذه الرسالة، وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في «الجواب الكافي» أن في سورة يوسف ما يزيد علىٰ ألف فائدة، وتمنىٰ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ أن يفردها بتصنيف مستقل إلا أن المنية أقترمته ولم يصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ فيها شيئا.

وكون هذه القصة مشتملة علىٰ العبرة لا تختص بذلك دون سائر قصص الأنبياء والرسل؛ بل جميع قصص الأنبياء والرسل؛ بل الأمم السابقة التي قصها الله عَزَّوَجَلَّ علينا في القرآن هي مشتملةٌ علىٰ ذلك؛ لكنها أختصت بما ذكره الله عَزَّوَجَلَّ في صدرها بقوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾ يعني: علاماتٍ وعبراً لمن رام الهداية والإسترشاد.

وإنما انتظم فيها ما ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ من كونها مشتملة علىٰ آيات وعبر متنوعة لكل من يسأل ويريد الهدىٰ والرشاد لما فيها من تنقل عبد الله يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من حال إلىٰ حال، ومن محنة إلىٰ محنة، ومن منحة إلىٰ منحة، ومن ذلٍّ ورق إلىٰ ملك وعز، ومن فرقة وشتات إلىٰ إجتماع وإدراك غايات، ومن حزنٍ وترح إلىٰ سرور وفرح.. الخ ما ذكر، ففيها مصداق قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝١٩﴾ [الانشقاق] قال أكثر أهل العلم بالتفسير: لتركبن حالا بعد حال، فمن حال الضعف إلىٰ القوة ومن القوة إلىٰ الضعف، ومن المرض إلىٰ الصحة ومن الصحة إلىٰ المرض، ومن الحزن إلىٰ الفرح ومن الفرح إلىٰ الحزن، وقد جاء هذا جليًّا في تضاعيف قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كما سيذكره المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ فيما يُستقبل من كلامه.

فمن فوائد هذه السورة أن فيها أصولا لعلم تعبير الرؤيا، فإن علم تعبير الرؤيا علم عظيم مهم، مبناه علىٰ حسن الفهم، والعبور من الألفاظ والمحسوسات والمعنويات، أو ما يناسبها بحسب حال الرائي وبحسب الوقت والحال المتعلقة بالرؤيا، وقد أثنىٰ الله علىٰ يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بعلمه بتأويل الأحاديث، تأويل أحاديث الأحكام الشرعية والأحاديث المتعلقة بتعبير الرؤيا، والفرق بين الأحلام التي هي أضغاث أحلام لا تأويل لها مثل ما يراه من يفكر ويطيل تأمُّلَه لبعض الأمور، فإنه كثيرا ما يرىٰ في منامه من جنس ما يفكر به في يقظته، فهذا النوع الغالب عليه إنه أضغاث أحلام لا تعبير له؛ وكذلك نوع آخر ما يلقيه الشيطان علىٰ روح النائم من المرائي الكاذبة والمعاني المتخبطة فهذه أيضا لا تعبير لها، ولا ينبغي للعاقل أن يشغل بها فكره، بل ينبغي له أن يلهىٰ عنها. وأما الرؤيا الصحيحة فهي إلهامات يلهمها الله للروح عند تجردها عن البدن وقت النوم، أو أمثال مضروبة يضربها الملك للإنسان ليفهم بها

ما يناسبها. وقد يرىٰ الشيء علىٰ حقيقته ويكون تعبيره هو ما رآه في منامه.

ذكر المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في هذه الجملة أجل فوائد سورة يوسف، ذلك أنه لكل سورة من القرآن عمودٌ ونظام تجتمع فيه أجل مقاصدها، وأجلُّ مقاصد سورة يوسف أنه قرّر فيها ما لم يقرر في غيرها من القرآن من أصول عظيمة في علم جليل وهو علم «تعبير الرؤيا»، فإن علم تعبير الرؤيا علمٌ عظيم وهو من جملة علوم الوحي.

وقد ذكر أبو عمر ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في كتاب «جامع بيان العلم وفضله» أن مالكًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ كان يغضب إذا انتصب لتعبير الرؤيا من لم يكن عنده علم، وكان يقول: الرؤيا من الوحي ولا يدرك الوحي إلا بالعلم، وهذا هو الذي اتفق ليوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فإنه لم يبلغ هذا المقام من إصابة التعبير للرؤيا وفهمها إلا لما كان عليه من علم جلي، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أثنىٰ علىٰ يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بعلمه بتأويل الأحاديث، وهذه الأحاديث التي مُدح يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالعلم بها نوعان اثنان:

الأول: **الأحاديث الشرعية**، وهي الأحاديث المشتملة علىٰ بيان الشريعة المنزلة عليه.

والثاني: **الأحاديث القدرية**، وهي الأحاديث التي تشتمل علىٰ التعريف بأقدار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ومن جملتها المنامات والرؤىٰ.

فإن العبد في منامه إذا رأىٰ شيئا فإنما تعلق بهذا الشيء حكم قدري، أما الحكم الشرعي فعامة الأصوليين علىٰ عدم الاحتجاج بالرؤيا بالأحكام الشرعية، وإنما تكون في حقّ صاحبها إلهامًا يلهمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إياه ليُثبت به قلبه كما ذكره الزركشي وغيرُه.

فإذا رأىٰ الانسان شيئا متعلقا بالأحكام الشرعية فإن ذلك المنام الذي رأه لا يعدو أن يكون مثبتا له، فإن خالف الشريعة الظاهرة فلا التفات إليه.

وقد وقع هذا لجماعة من العلماء فقد روىٰ الطبراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في كتابه «مكارم الأخلاق» حديث النعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم**..» إلخ الحديث المخرج في «الصحيحين»، ثم قال: رأيت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المنام فسألته عن هذا الحديث فقال: صحيح صحيح صحيح ثلاثا، ولابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في إحدىٰ المسائل في كتاب «فتح الباري» شيء من هذا في آخرين من أهل العلم؛ لكنه لا يعدو أن يكون مطمئنا لهم، أما الجزم بالحكم

الشرعي عن طريق الرؤيا والمنام؛ فإنه لا يعول عليه البتة.

والمقصود أن أن تعرف أن الرؤىٰ والمنامات مردها إلىٰ الأحكام القدرية، وقد أعطي نبي الله يوسف عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ علما عظيما بها.

ثم نبه المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ إلىٰ التفريق بين الرؤىٰ والأحلام، وهذا التفريق مبناه علىٰ الاسم الشرعي.

أما باعتبار الوضع اللغوي: فإن اسم الرؤيا يقع علىٰ كل ما يراه الإنسان في منامه،

أما الرؤيا في الشرع: فإنها مختصة بالبشرىٰ الصالحة التي تسر المؤمن.

وقد ثبت في الصحيح أن ما يراه النائم في نومه لا يخرج عن ثلاثة أشياء:

أحدها: حلم؛ هو تحزين من الشيطان.

وثانيها: حديث النفس الذي يحدث به العبد نفسه قبل نومه ويغلب علىٰ قلبه فيراه مصورا في منامه.

وثالثها: البشرىٰ الصالحة التي تسره.

فهؤلاء جميعا يشملهن اسم الرؤيا باعتبار الوضع اللغوي، وأما باعتبار الوضع الشرعي فإن الرؤيا مختصة بما كان مشتملا علىٰ البشرىٰ الصالحة، لأن الرؤيا من الله والحلم من الشيطان كما ثبت في الحديث، فاقتضىٰ هذا التفريقَ بين الوضع اللغوي والشرعي، فمن أدعىٰ أن الرؤيا اسم للجميع باعتبارٍ مطلق ولم يفرق بين الوضعين فقد أخطأ وخالف ما ثبت في الأحاديث الصحاح.

وما يراه الانسان من الأحلام هو أضغاث لا التفات إليها؛ بل كما ثبت في الصحيح «هي تحزينٌ من الشيطان»، ولذلك أمر العبد بأن يتعوذ من الشيطان إذا رأها وألا يذكرها لأحد البتة.

وأما حديث النفس فهو الحديث الذي يجري علىٰ قلب الانسان مما يشتغل به في نهاره فيراه مصورا في منامه.

وهذا العلم العظيم وهو تعبير علم الرؤيا مبني علىٰ حسن الفهم والعبور من الألفاظ والمحسوسات والمعنويات التي تذكر للمعبر، فيعبر منها إلىٰ معرفة مآل هذه الرؤيا وغايتِها، أو يستدل بشيء من حال الرائي ووقته بتفسير رؤيا كما وقع ليوسف عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فإن يوسف عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ استعمل هذا وهذا فعبر الرؤيا تارة بالنظر إلىٰ الألفاظ والمعاني التي اشتملت عليها، وتارة باعتبار حال الرائي وهو الملك كما سيأتي بإذن الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم نبّه المصنّف إلىٰ تعريف الرؤية الصالحة وإنها إلهاماتٌ يلهمها الله للروح عند تجردها عن البدن

وقت النوم، أو أمثال مضروبة يضربها الملك للانسان ليفهم بها ما يناسبها.

ثم ذكر ما يراه الإنسان من الرؤىٰ في المنام:

إما أن يكون علىٰ حقيقته فيتبدىٰ في عالم الشهادة ما رأه في عالم الغيب في منامه بصورته ونصه وفصه دون غموض وإيماء فيه.

وتارة يكون علىٰ وجه غامض حتىٰ إذا عبر باستعمال النظر إلىٰ الألفاظ والمعاني أو حال الرائي وما يناسب زمانه ومكانه فعند ذلك يتوصل إلىٰ تأويل هذه الرؤيا.

فيوسف صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعطاه الله من العلم ما يميز به بين المرائي الصحيحة والباطلة، والحق والباطل منها.

وهذه القصة فيها الدلالة علىٰ تعبير الرؤيا من وجوه:

أحدها رؤيا يوسف التي قصها علىٰ أبيه يعقوب صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾ [يوسف] ففسرها يعقوب صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بغاياتها وما تؤول إليه، وبوسائلها التي تتقدم عليها، ففسر الشمس والقمر بأبي يوسف وأمه، والكواكب الأحد عشر بإخوته، وأن الحال سيكون مآلها أن الجميع ليسجدون ليوسف ويخضعون له.

ولهذا لما حصل الاجتماع ودخل أبوه وأمه وإخوته مصر، ورفع أبويه علىٰ العرش خر الجميع له سجدا وقال يوسف متذكرا ذلك التعبير والتفسير: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف:١٠٠]، وهذا أمر عظيم اتصل بيوسف الحال إلىٰ أن يكون معظما تعظيما بليغا عند أبويه وإخوته، وكذلك عند الناس.

وهذه الغاية تستدعي وسائل ومقدمات لا تحصل إلا بها، وهو العلم الكثير العظيم والعمل الصالح والإخلاص والاجتباء من الله والقيام بحق الله وحقوق الخلق. فلهذا قال سبحانه في ذكر السبب الموصل لهذه الغاية الجليلة: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾ [يوسف] يعني لا بد أن يتم الله عليك نعمته بتعليم العلوم النافعة والأعمال الصالحة والاجتباء من الله، وحصولُ الأخلاق الجميلة والمقامات الجليلة، فتبشره بحصول هذه الأمور، ثم بالوصول إلىٰ الرفعة في

الدنيا والآخرة. وفي ضمن هذا التعبير من يعقوب ليوسف بشارة له وتسهيل لما سيناله من المشقات والكروب مع إخوته وفي السجن؛ فإن من علم أن المكاره والمشقات تفضي إلىٰ الخير والراحات تسلىٰ وهانت عليه مشقتها وسهلت عليه وطأتَها، وحصل بذلك من اللطف والروح بشيء عظيم. وهذا من جملة اللطف الذي أشار إليه يوسف في قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [يوسف:١٠٠] وهذا من مقتضىٰ حكمة الله أن المراتب العاليات لا تنال إلا بالوسائل الجليلة، ولهذا قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾ [يوسف].

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا من دلائل هذه السورة علىٰ تعبير الرؤيا وتأصيل علمها ما وقع من قصة يوسف في مبدأ أمره، لما رأىٰ أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رآهم له ساجدين فقصها علىٰ أبيه، وفسرها يعقوب عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ومأخذ تفسير يعقوب في قوله: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف:٥] فإن هذا تفسيرًا لرؤيا علىٰ وجه الإشارة؛ لأنه عرف من هذه الرؤيا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يرفع هذا العبد علىٰ سائر أهل زمانه، ولا يحصل الكيد إلا لمن رفع فنهاه حينئذ عن قص هذه القصة عن إخوته، فالقول بأن يعقوب فسرها قول فيه قوة، وإن كان أكثرُ أهل العلم علىٰ خلافه، ووجه قوته أن في قوله: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ﴾ أشارة إلىٰ ذلك لأنه علم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يرفعه عليهم، وما حل به من الحزن والشدة غير مستغرب مع معرفته بمآل هذه الرؤية، لأنه لم يعرف الطريق الموصل إليها، وإنما عرف الغاية والنهاية، فلما غمض عليه معرفة الطريق التي تحصل بها الرفعة ليوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وطال عليه الأمد حينئذ ابيضت عيناه من الحزن.

وهذا المآل الذي يؤول إليه يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من كونه عظيما بين الناس مرفوعا عليهم يستدعي وسائل ومقدمات كما ذكر المصنف، لا تكون الرفعة إلا بها وهي العلم الكثير والعمل الصالح والإخلاص والاجتباء من الله والقيام بحق الله وحقوق خلقه.

فلما تبوّأ يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هذه المنزلة من القيام بحق الله وحق خلقه أتم الله عَزَّوَجَلَّ عليه نعمته فعلمه العلم النافع ويسر له العمل الصالح واجتباه إليه وحصلَ له من الأخلاق الجميلة والأوصاف الجليلة والمقامات الرفيعة ما لم يحصُل لأحد من أهل زمانه، وفي ضمن هذا التعبير كما ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في ضمن هذا التعبير من يعقوب ليوسف بشارة له وتسهيل لما سيناله من المشقات والقروب مع إخوته، فإن العبد إذا عرف مآله من الرفعة، ثم لقي في سبيل ذلك مشقة وعناءً تصبّر من أنه

يعرف أن نهاية أمره أن يصل إلىٰ من يرومه من الرفعة والمنزلة، فحصل بهذا الخبر الصادق من الترويح عن يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ واللطف بحاله ما لم يكن يحصل بدونه، وقد عقد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في آخر كتابه «المواهب الربانية» فصلا في ببيان لطف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعباده، ومن جملة ذلك اللطف لطفه بعبده يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وسبق بيان ما فيه من المعاني في درس «المواهب الربّانية» وهو أحد دروس برنامج اليوم الواحد.

ومن فوائد هذا التعبير لرؤيا يوسف بشارة عظيمة ليعقوب وأم يوسف وإخوته بحصول الرفعة والصلاح والخير، فيعقوب صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أكابر الأنبياء وأفاضل الأصفياء، وأمه لها من الخير والصلاح والرفعة في الدنيا والآخرة حيث شبهت بالشمس أو بالقمر، علىٰ اختلاف القولين، وإخوة يوسف وإن كان قد جرىٰ منهم في حق أباهُم وأخاهُم من الأذية والعقوق والقطيعة ما جرىٰ ولكن أباهم وأخاهم عفيا عنهم واستغفر الله لهم والله تعالىٰ أرحم الراحمين. فالشمس والقمر والنجوم تضمنت النور والارتفاع، ولكنها متفاوتة في نورها بحسب التفاوت بين الأبوين وبين الإخوة.

فالحاصل أن هذه الرؤيا تضمنت ما حصل ليوسف صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من خير الدنيا والآخرة والمقامات العظيمة والوسائل والمنن التي أوردتها هذه الأمور وما حصل لأبويه وإخوته من مشاركته في خير الدنيا والآخرة، والله تعالىٰ أعلم.

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ من جملة فوائد هذا التعبير لرؤيا يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ البشارة العظيمة ليعقوب عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأم يوسف وإخوته بحصول الرفعة والصلاح والخير لهم، فإنه رأىٰ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أباه وأمه وإخوته في حال سجود له، والسجود دلالة علىٰ الصلاح وكان هو مرفوعا عليهم باعتبار ما نال من الرفعة والمقام الحسن، فبعدما وقع منهم ما وقع مع أبيهم وأخيهم قبل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ توبتهم ورفع مقامهم وكان في سجودهم في الرؤيا التي رأها يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إخبار عن مآل حالهم بما يكونون من الرفعة واجتمعت في هذه الرفعة رفعة أبوي يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يعقوب وزوجه أم يوسف، وقد اختلف العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ من الشمس ومن القمر في تلك الرؤيا أيعقوب الشمس وأمه القمر أو العكس ؟ علىٰ قولين لا يظهر دليل قوي في ترجيح أحدهما علىٰ الآخر.

ومن لطائف الأوصاف القرآنية أن هذه الآية جاء فيها جعل يعقوب وزوجه أم يوسف وأبنائه في منزلة الرفعة من السماء شمسا وقمرا وكواكب، ووصف نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما هو أكمل من ذلك فجمع له

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الوصف ما في القمر من الكمال وما في الشمس من الكمال؛ فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب]، فالسراج وصفٌ لشمس، والإنارة وصفٌ للقمر؛ لكن لما كانت الشمس سراجا وهاجا لم يوصف النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالوهج المتضمن للإحراق، وإنما أخذ له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصفُ القمر وهو الإنارة، ولما كانت الإنارة قد تضعف أحيانا جيء بوصف السراج للعلم بأن هذه الإنارة لا تخبو ولا تضعف كما تضعف إنارة القمر بالنسبة للشمس، فجُمع للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين الوصفين تحقيقا لكماله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلوه علىٰ جميع الكواكب الموضوعة في السماء. وقد ذكر هذا المعنىٰ شيخ الاسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في «الجواب الصحيح» وتلميذه ابن القيم في «هداية الحيارىٰ».

في الفصل الأول

وأما رؤيا الفتيين حيث قال أحدهما: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا﴾ [يوسف:٣٦] فتلطفوا ليوسف أن ينبئهما بتأويل رؤياهما لما شاهدوا من إحسانه للأشياء وإحسانه إلىٰ الخلق؛ ففسر رؤيا من رأىٰ أنه يعصر خمرا أنه ينجو من سجنه ويعود إلىٰ مرتبته وخدمته لسيده، فيعصر له العنب الذي يؤول إلىٰ الخمر، وفسَّر رؤيا الآخر فيقتل ثم يصلب فتأكل الطير من رأسه.

فالأول رؤياه جاءت علىٰ وجه الحقيقة، والآخر رؤياه جاءت علىٰ وجه المثال وأنه يقتل، ومع قتله يُصلب ولا يدفن حتىٰ تأكل الطيور من رأسه.

وهذا من الفهم العجيب والغوص علىٰ المعاني الدقيقة، وذلك أن العادة أن المقتول يدفن في الحال، ولا تتمكّن السباع والطيور من الأكل منه.

ففهم أنّ هذا سيقتل ولا يدفن سريعًا حتىٰ يصل إلىٰ هذه الحال، وفي هذا من فضيحته وخزيته وسوء مصيره الدنيوي ما تقشعر منه الجلود، وحيث علم أن هذه الرؤيا صحيحة، لا بد من وقوعها، قال لهما: ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ٤١﴾ [يوسف]، وهذا من كمال علمه للتعبير الذي لا يعبَّر عن ظن وتوهم وإنما يعبر عن علم ويقين.

وأما المناسبة في ذلك في أنّ الطيور لا تقرب الحي وإنما تتناول الميت إذا لم يكن عنده أحد، وهذا إنما يكون بعد قتله وصلبه.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا من جملة فوائد قصة يوسف عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ما اتّفق له مع الفتيين اللّذين رأىٰ كلّ واحد منهما رؤيا فقصّها علىٰ نبي الله يوسف عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ:

فأما أحدهما فرأىٰ أنه يعصر خمرا،.

وأما الآخر فرأىٰ أنه يحمل فوق رأسه خبزا تأكل الطير منه.

ثم جاء تفسير هذه الرؤيا باعتبار مسلكين اثنين:

أحدهما: باعتبار صيرورة الرؤيا في عالم الغيب إلىٰ ما هي عليه في عالم الشهادة، فإنّ الأول رأىٰ أنه يعصر خمرًا في حال الغيب في المنام، ثم وقع له هذا في حال الشهادة، وصار خادِمًا للملك يعصر له الخمر ويسقيه إياه.

والآخر: ما وقع علىٰ وجه المثال المضروب، وعامّة الرؤىٰ من هذا الجنس، فضُرب له مثلا في حاله إذ رأىٰ أنه يجمل فوق رأسه خبزًا تأكل الطير منه، وقد علم يوسف عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنه يُقتل ولا يدفن سريعًا؛ لأن الطير لا تقرب من الحي وإنما تكون قريبة من الميت، وإنّما تقرب الطير من ميت قد بقي بعد موته فلم يدفن، فأخبره يوسف عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بمآله عن طريق العُبور من ضرب المثال إلىٰ مآل هذه الرؤيا الذي تكون عليه في عالم الشهادة.

والأول من مآخذ الرؤيا سهلٌ ميسور في الغالب الأعم، فإنَّ الانسان يرىٰ شيئا علىٰ حقيقته من غير غموضٍ فيه، ثم يتبدّىٰ في عالم الشهادة فيذكر تلك الرؤيا ويعرف أنّ ما وقع له حقيقةً هو تأويلُ تلك الرؤيا.

وأمّا الثاني وهو ضرب المثال فإنه يعسر ويغمض؛ لأن المثال فيه إيماءٌ وإشارة، وفهم الاشارة والإيماء لا يتمكن منه كل أحد، وإنما يتمكّن منه من اجتمعت له الخصال التي اجتمعت ليوسف عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وكلما كان الانسان مكملا لحاله بمثل حال يوسف من العلم النافع والعمل الصالح كانت تفسيره لرؤيا أصح وأصوب.

فاللّائق أن يسأل في هذا الباب إلا من جمع الأوصاف التي تكون بها آلة تعبير الرؤيا من العلم النافع والعمل الصالح، أمّا من عرف بقلّة علمه ورقة دينه وسوء عمله فإنّه لا يسأل عن ذلك، ولو اتّفق أنه عبر أشياء فوقعت كذلك؛ فإن هذا من جنس ما يخبر به الكهنة فيقع كذلك ابتلاءً وفتنة للناس.

وقد عظمت الفتنة في هذا الباب بآخره، ومن أنواع تزيين الشر من الشياطين للإنس أن تغلُب عليهم الأحلام ويشتغلون بتفسيرها ويتعلّقون بها، والصالحون يعلمون أنّ هذه المنامات مهما صَدقت فإنّها لا تخرج عن كونها سُرورًا لا يولد غرورا، كما جاء عن مالك أنس وأحمد ابن حنبل وقد ذكر لكل واحدٍ منهما رؤيا حسنة في حياته فقالا: الرؤيا تسر المؤمن ولا تغرُّه.

ومن كمال يوسف ونصحه وفطنته العجيبة أنهما لما قصا عليه رؤياهما تأنىٰ في تعبيرها ووعدهما بتعبيرها بأسرع وقت، فقال: ﴿لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ﴾ [يوسف:٣٧] فوعدهما بتعبيرها قبل أول طعام يأتيهما من خارج السجن ليطمئنا ويشتاقا إلىٰ تعبيرها، وليتمكن من دعوتهما ليكون أدعىٰ لقبول الدعوة إلىٰ الله لأن الدعوة لهما إلىٰ الله أعظم من تعبير رؤياهما. فدعاهما إلىٰ الله بأمرين:

أحدهما بحاله وما هو عليه من الوصف الجميل الذي أوصله إلىٰ هذه الحال الرفيعة، بقوله: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [يوسف].

الأمر الثاني: دعاهما بالبرهان الحقيقي الفطري فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف] فإن من توحد بالكمال من كل وجه، وبالقهر للعالم العلوي والسفلي، المستحقَ للألوهية الكاملة، الذي خلق الخلق لعبادته وأمرهم بها وله الحكم علىٰ عباده في الدنيا والآخرة هو الذي لا ينبغي العبادة إلا له وحده دون المعبودات الناقصة المتفرّقة، التي كل قوم يدعون إلهيتها، وليس فيها من معاني الإلهية شيء ولا استحقاق، وإنما هي أسماء اصطلحوا علىٰ تسميتها أسماء بلا معان، فرأىٰ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعوتهما إلىٰ الله أولىٰ بالتقديم علىٰ تفسير رؤياهما وأنفع لهما ولغيرهما.

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ من جملة فوائد قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بيان كمال حاله ونصحه وفطنته، وذكر من ذلك أنهما لما قصّا عليه الرؤيا تأنىٰ في تعبيرها ووعدهما بتعبيرها بأسرع وقت، فوعدهما بتعبرها قبل أول طعام، وإنما أخّر ذلك ليشتاقا إلىٰ تعبيرها ويطمئنا إلىٰ ذلك، ووقع منهما قصد يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بتفسير هذه الرؤيا في ما يظهر والله أعلم أنه كان معروفا بذلك بين أظهرهم، فإنه لما رؤي عليه الصلاح وكمال الحال قُصد بذلك فصار محلا لسؤال عن هذه الأمور، فأخبرهما عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنه يعبر لهما هذه الرؤيا قبل أولِ طعامٍ لطمئنا ويشتاقا إلىٰ تعبيرها وليتمكن من دعوتهما إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فنقلهما إلىٰ أمرس أعظم من الأمر الذي أشتغل به؛ فإنهما اشتغلا بطلب تفسير الرؤيا التي رأىٰ كل واحد منهما في منامه، فرفع همّتهما إلىٰ أمر أعظم يتعلق بنجاتهما في الأولىٰ والأخرىٰ وهو تعدوتهما إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وفي هذا تنبيهٌ إلىٰ أنه ينبغي لمن وقف نفسه علىٰ تفسير الرؤيا أن يتنبه إلىٰ تقديم الأعظم والأهم، فليس الأمر في كل حال أن يكون الأهم أن تفسّر لطالب التفسير لرؤياه أن تفسر له تلك الرؤيا، وإنما قد يكون هناك ما هو أعظم مما أشتملت عليه حاله، فدعىٰ يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هذين الرجلين إلىٰ الله وكان السبيل الذي سلكه في ذلك تنبيههما إلىٰ الدعوة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ووحدانيته بشيئين:

أحدهما: بحالِه، وما كان عليه - صلوات الله وسلامه عليه - من الوصف الجميل الذي أوصله إلىٰ هذه المنزلة الرفيعة ولذلك قال: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾، ثم بين أن هذا التعليم أوجبه توحيده لربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فقال: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ إلخ الآيات، وفي هذا إعلام بأن مفتاح كمال الحال هو توحيد الواحد المتعال، وكلما زاد قلب العبد توحيدا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وتوثقت صلته به وأستمسك بالعروة الوثقىٰ كان ذلك أكمل لحاله في كل شيء، ولهذا فإن الموحد في علمه وعمله وقاله وفعاله أكملُ حالًا من غيره، وكلما زاد العبد توحيدا زاد كمالا.

ومن هنا قال إمام الدعوة رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في «كشف الشبهات»: "والعامي من الموحدين يغلب ألفا من علماء المشركين " انتهىٰ كلامه، وإنما وقعت الغلبة باعتبار ما هو عليه من توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

أما الأمر الثاني: فهو تدعوتهما بالبرهان الحقيقي الفطري، الذي فُطرت عليه النفوس، فإن النفوس مفطورة علىٰ اعتقاد الوحدانية والصمدانية في موجب هذا الكون، فليس نفسٌ إلا وهي مفطورةٌ علىٰ أن مدبر هذا الكون ومكونه واحد، أما الأرباب متفرقون فإن النفس تتشوش بوجودهم، ولا تقنع بكون هذا ربًّا دون هذا؛ ولذلك قال يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ فوصف ربه بثلاث صفات هي الألوهية والوحدانية والقهرية كما سيأتي في كلام المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ فيما يستقبل، ومن كان علىٰ هذه الحال من الكمال والقهر للعالم العلوي والسفلي وتوحده بصفات الكمال والعلو فهو الذي يستحق العبادة دون غيره.

الفصل الثاني

وأما رؤيا الملك فإنه رأىٰ سبع بقرات سمان يأكلهن سبع بقرات عجاف وسبع سنبلات خضر يأكلهن ويستولي عليهم سبع سنبلات يابسات ضعيفات فهالته، وجمع لها كل من يظن فيه المعرفة فلم يكن عند أحد منهم علم بتعبيرها، و﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ٤٤﴾ [يوسف].

وبعد هذا تفطن الذي خرج من السجن لحالة يوسف وما هو عليه من العلم العظيم والعلم بالتعبير، وتفطن لوصيته التي أنساه الشيطان ذكر ربه لحكمة قد فصح أمرها، وأنه لا يخرج من السجن إلا بعد اشتهاره وتميزه العظيم علىٰ الناس كلهم بتعبير رؤيا الملك، فطلب هذا الرجل من الملك أن يرسله إلىٰ يوسف، وأنه كفيل بمعرفة تفسيرها فلما جاء يوسف قال له: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ﴾[يوسف:٤٦] فإن الملك والناس معه أرسلوني إليك لتفسيرها لهم وهم في انتظار ذلك متشوقين إليه غاية التشوق، ولهذا قال: ﴿لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٤٦﴾ [يوسف] ما ألهم الملك وأزعجه ولاعه، ففي الحال فسرها يوسف صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وزادهم مع التفسير حسن العمل بها وحسن التدبير، فأخبرهم أن البقر السمان والسنابل السبع الخضرات هي سنون رخاء وخصب متواليات تتقدم علىٰ السنين المجدبات؛ وأن البقر العجاف والسنابل اليابسات سنون جدب تليها، وأن بعد هذه السنين المجدبات عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون. وأنه ينبغي لهم في السنين المخصبات أن ينتهزوا الفرصة ويعدّوا العدة للسنين الشديدات فيزرعون زروعا هائلة أزيد بكثير من المعتاد، ولهذا ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا﴾ [يوسف:٤٧] ومن المعلوم أن جميع السنين يزرع الناس، لكنه أراد منهم أن يزرعوا زروعا كثيرة ويبذلوا قواهم في كل ما يقدرون عليه، وأنهم يحتاطون في الغلات إذا حصلت بالتحصين والاقتصاد. فقال: ﴿فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ٤٧﴾ [يوسف] أي: احفظوا الحاصلات من الزرع حفظا تسلم به من الفساد والسوس بأن تبقىٰ في سنابلها، ويقتصدون في هذه المدة مدة الرخاء فلا يسرفون في الإنفاق، بل يأكلون القليل ويحفظون الكثير. وإن بعد هذه السنين المخصبات سيأتي سبع سنين مجدبات شديدات، تشمل الديار المصرية وما حولها، وإنها تأكل ما قدم لها مما حفظ في سنين الخصب إلا قليلا مما تحصنون. ووجه المناسبة أنه كما تقدم أن الرؤيا تعبر بحال رائيها، والمناسبات المتعلقة بها فكالرائي لها الملك الذي تتعلق به أركان الرعية وأمورها، ولهذا كانت رؤياه ليست خاصة له، بل تشمل

الناس والرعية. ووجه المناسبة في تفسير البقرات والسنابل بالسنين ظاهرا في البقر من وجهين:

أحدهما أنها هي التي في الغالب يحرث عليها الأرض، والحروث والزروع وتوابعها تبع للسنين في خصبها وجدبها.

والوجه الثاني: البقر من المواشي التي سمنها وعجفها تبع للسنين أيضا، فإذا أخصبت سمنت وإذا جدبت عجفت وهزلت؛ وكذلك السنابل تزهو الزروع وتكمل وتنمو مع كثرة الماء والسنين المخصبات، وتضعف وتيبس مع السنين المجدبات، فكانت رؤياه في البقر والسنابل من أوصاف السنين وآثارها ومن ذكر الوسائل والغايات. فالحرث للأراضي وسيلة، ونمو الزرع وحصول السمن في المواشي هو الغاية من ذلك والمقصود.

وأما قوله: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف] أي: يحصل للناس فيه غيث مغيث، تعيد الأراضي خصبها، ويزول عنها جدبها، وذلك مأخوذ من تقييد السنين المجدبات بالسبع؛ فدل هذا القيد علىٰ أنه يلي هذه السبع ما يزيل شدتها، ويرفع جدبها؛ ومعلوم أن توالي سبع سنين مجدبات لا يبقي في الأرض من آثار الخضر والنوابت والزروع ونحوها لا قليلا ولا كثيرا، ولا يرفع هذا الجدب العظيم إلا غيث عظيم؛ وهذا ظاهر جدا، أخذه من رؤيا الملك ومن العجب أن جميع التفاسير التي وقفت عليها لم يذكروا هذا المعنىٰ، مع وضوحه، بل قالوا: لعل يوسف صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاءه وحي خاص في هذا العام الذي فيه يغاث الناس وفيه يعصرون.

والأمر لا يحتاج إلىٰ ما ذكروه، بل هو ولله الحمد ظاهر من مفهوم العدد، وأيضا ظاهر من السياق. فإنه جعل هذا التعبير والتفسير توضيحا لرؤيا الملك.

ثم اعلم أن رؤيا الملك وتعبير يوسف لها وتدبيره ذلك التدبير العجيب من رحمة الله العظيمة علىٰ يوسف وعلىٰ الملك وعلىٰ الناس. فلولا هذه الرؤيا وهذا التعبير والتدبير لهجمت علىٰ الناس السنون المجدبات قبل أن يعدوا لها عدتها فيقع الضرر الكبير علىٰ الأقطار المصرية، وعلىٰ ما جاورها، فصار ذلك رحمة بهم وبغيرهم من الخلق. ألا ترىٰ كيف شمل الجدب البلاد المصرية وشمل البلاد الشامية وفلسطين وغيرها حتىٰ احتاجوا إلىٰ الاكتيال من مصر، واحتاج يوسف أن يقدر للجميع، ويوزع عليهم توزيعا عادلا فيه الرفق بالجميع والإبقاء عليهم؟ وكان هذا العلم العظيم من يوسف هو السبب الأعظم في خروجه من السجن وتقريب الملك له من اختصاصه به وتمكينه من الأرض يتبوأ منها حيث يشاء،

وهذا من إحسانه، والله لا يضيع أجر المحسنين. ومع هذا الفضل فضل الله أعظم من ذلك، يصيب برحمته من يشاء ممن يختاره، ويختص ويجمع له خير الدنيا والآخرة.

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في هذا الفصل أصلًا ثانيا من أصول التعبير الرؤيا الواردة في سورة يوسف، وهو ما وقع من رؤيا الملك - ملك مصر - إذ رأىٰ سبع بقرات سمانٍ يأكلهن سبعٌ عجاف، وسبعُ سنبلاتٍ خضرٍ وأخر يابسات، واحتار ذلك الملك في تأويل رؤياه فقصّها علىٰ أعوانه وأهل بلده فعسُر عليهم تفسيرها وعجزوا عن تأويلها، و﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ۝٤٤﴾، ولما اشتدت الحال بهم وعظم الخطب عليهم تفطَّن صاحب يوسف الذي كان معه في السجن إلىٰ حال يوسف عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من العلم العظيم ومعرفة تعبير الرؤىٰ، فعند ذلك جاء إليه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وقصَّ عليه تلك الرؤيا ففسّرها يوسف عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهذا التأخير من التذكّر من صاحب يوسف عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إنّما جرىٰ ليحصل بذلك إشهار أمر يوسف، فإنه تأخر عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في السجن حتىٰ وقعت هذه الرؤيا عند الملك؛ فحينئذ ذكره صاحبه، فذكر حاله للملك وقص عليه الرؤيا ففسرها فاشتهر أمر يوسف عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بين أظهر الناس في مصر بأنه الرجل الذي فسر رؤيا الملك، وكان هذا موجبًا لاختصاص يوسف بذلك المَلك وكونه من أرفع الناس عنده كما ذكر المصنف في آخر كلامه، وهذه الرؤيا التي رأها الملك هي من جنس ضرب المثال، فإنه رأىٰ أمثالًا تُضرب له لسبع بقرات سمان تأكلهن سبعٌ عجاف يعني: ضعاف، ورأىٰ سبعَ سنبلات خضر وأخر يابسات ففسرها يوسف عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بسبع سنين تكون فيها حال الناس في خصَبٍ وسعة حال وزيادة رزق ورفاهية عيش، ثم يخلفها سبع سنواتٍ عجاف.

ومأخذ يوسف عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من هذه القصة في تفسير الرؤيا أنه رأىٰ في البقر والسنابل إشارة إلىٰ الزرع والرزق، فإنّ البقر هي التي يحرث عليها الناس أكثر من غيرها في مصر، ولا يزال هذا إلىٰ اليوم، ثم السنابل هي التي يقتات بها الناس في تلك الدِّيار، واخضرارها دال علىٰ سعةِ العيش ويبسها دالٌّ علىٰ تضيق العيش، كما أن السمن البقر إشارة إلىٰ السعة وعجفها وضعفها إشارة إلىٰ ضيق العيش، فاستدل يوسف عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من الاشارة المومأ إليها في هذه الرؤيا إلىٰ تعبيرها وتأويلها كما ذكر.

ثم أرشد يوسف عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلىٰ الواجب علىٰ الناس في ذلك؛ وأنه ينبغي عليهم أن يعتنوا في السَّنوات السبع التي يوسَّع فيها عليهم بالرزق أن يعتنوا بزرع الأرض، وأن يجتهدوا في العمل دأبًا يعني:

متتابعا متواليا، فإن تلك السبع يخلفهن سبعٌ عجاف تأتي علىٰ أرزاق الناس.

ثم بعد ذلك يوسع علىٰ الناس كما قال: ﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ٤٩﴾ فيحصل للناس غيثٌ مغيث يعيد للأرض خصبها وزينتها ويزيل عنها جدبها ويرفع الشدة عن الناس.

وقد استنبط المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ علم يوسف بهذا العام الذي يغاث فيه الناس، استنبطه من تقييد سنين الجدب والضعف بسبع، وإذا قُيِّد العدد بوصف علم أن ما بعده يكون مخالفا له في الوصف، فإذا كان تلك السنين السبع سنين جَدب عُلم أن ما بعد هذا لا بد أن يكون مخالفا لها، وإلا كان ثامنةً من ضمنها، فلما قيدت الرؤيا بالسبع عُلم أنّ السنة التي تليها يرفع الوصف السابق، ولا يرفع وصف الجدب والضعف إلا بغيثٍ عظيم لأن الأرض إذا مرت عليها مثل هذه المدة من الجدب والضعف صَوّح نفسُها وذهبت خُضرتها وأضمحلّت بركتها ولا تعود إلىٰ سابق عهدها من الزينة والبهجة والتوسيع علىٰ الناس إلا بغيثٍ عظيم، فهذا مأخذُ معرفته – صلوات الله وسلامه عليه – بذلك العام لا كما قاله بعض المفسرين بأن يوسف عرف هذا بوحيٍ خاص أو بإلهام معين.

ثم بين المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ أن رؤيا الملك وتعبير يوسف لها، وما دبّر فيها من العمل وقعَ رحمةً من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنبيِّه يوسف، ولذلك الملك وللناس جميعًا، فصار رحمةً عليهم في تلك البلاد إذ وفِّقوا إلىٰ معرفة ما ينبغي تدبيره في السنوات المجدبات بعد السّنوات المخصِبات، وهذا من إحسان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إليهم وفضله عليهم.

الفصل الثالث

ومن فوائد هذه القصة أنه يتعين علىٰ الإنسان أن يعدل بين أولاده، وينبغي له إذا كان يحبّ أحدهم أكثر من غيره أن يخفي ذلك مهما أمكنه، وألا يفضله بما يقتضيه الحب من إيثار بشيء من الأشياء، فإنه أقرب إلىٰ صلاح الأولاد وبرهم به واتفاقهم فيما بينهم؛ ولهذا لما ظهر لإخوة يوسف من محبة يعقوب الشديدة ليوسف وعدم صبره عنه وانشغاله به عنهم سعوا في أمر وخيم، وهو التفريق بينه وبين أبيه، فقالوا: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾ [يوسف] وهذا صريح جدا أن السبب الذي حملهم علىٰ ما فعلوا بيوسف من التفريق بينه وبين أبيه هو تميزُه بالمحبة، خلاف ما ذكر كثيرٌ من المفسرين أن يوسف أخبرهم برؤياه – فحسدوه لذلك فإنه مناف للآية الكريمة، وسوء ظن بيوسف حيث استكتمه أبوه فقال: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف:٥]، فيوسف أبر وأعقل من أن يخبرهم بها؛ ولكن كثير من الإسرائيليات تروج علىٰ كثير من الناس، مع أن أقل تأمل في النصوص الشرعية يُعلمهم ببطلانها. والمقصود: أن الذي حمل إخوة يوسف علىٰ ما فعلوا هو تمييز يعقوب ليوسف، ومع هذا فلا يحل هذا الأمر الشنيع. وهم يعلمون أنه لا يحل لهم، ولكنهم قالوا: افعلوا هذا الجرم العظيم وتوبوا إلىٰ الله بعده. فلهذا قالوا: ﴿وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾ [يوسف] وهذا لا يحل أن يواقع العبد الذنب بأي حالة يكون، ولو أضمر أنه سيتوب منه، فالذنب يجب اجتنابه فإذا وقع وجبت التوبة منه. ولعل من حكمة الله ورحمته بيعقوب ما قدره عليه من الفرقة التي أحدثت له من الحزن والمصيبة ما أحدثت رفعةً لمقاماته في الدنيا والآخرة، وليكون النعمة عند حصول الاجتماع لها الموقع الأكبر والشكر الكثير والثناء علىٰ الله بها، وليصل ولده يوسف إلىٰ ما وصل إليه من المقامات الجليلة، وعسىٰ أن تكرهوا شيئا وهو خيرٌ لكم، وعسىٰ أن تحبوا شيئا وهو شر لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في هذا الفصل الثالث جملةً من فوائد هذه القصة صدرها بوجوب العدل بين الأولاد وهذا هو الذي أرشدت إليه الشريعة الاسلامية التي جاء بها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في الصحيحين من حديث النعمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «اعدلوا بين أولادكم»، فأمرت الشريعة الغراء بالعدل بين الأولاد، لأن التفضيل بينهم يوجب بغض لبعضهم لبعض، ولهذا لما ظهر

لأخوة يوسف محبة أبيهم لأبنه يوسف أكثر منهم عند ذلك كادوا له، ووقع منهم ما وقع معه، فإنهم فعلوا ما فعلوا بحجة قولهم: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٨﴾ فالسبب الذي حملهم علىٰ ما فعلوه بيوسف من التفريق بينه وبين أبيه هو تمييزه بالمحبة، وإنما اختص فعلهم الذي فعلوا بيوسف مع أنهم ذكروا أن أخاهم أيضا مشارك له في هذه المحبة إنما فعلوا ما فعلوا؛ لأن يوسف أشدُّ حبا إلىٰ أبيه من أخيه، والدليل أن الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ قدمه علىٰ لسانهم في الذكر فقال: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ فلو كان ذلك الأخ أحبُّ إلىٰ يعقوب لقدموه؛ لكن لما كان يوسف هو الأحب قُدم، ولما قُدم قدم له العمل علىٰ أخيه فحتالوا له بفعل ما فعلوا كما ذكر الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ في خبرهم في سورة يوسف عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وذكر بعض المفسرين أن الذي أوجب هذا الفعل منهم أنهم علموا برؤيا يوسف بخبره، وهذا القول ظاهر الضعف؛ لأنه مخالف لظاهر الآية السالفة كما أن فيه إساءة للظن بيوسف لأن أباه استكتمه الخبر، والظن الحسن به أنه لا يظهر علىٰ هذا الخبر أحدًا.

ثم نبه المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ إلىٰ أن أؤلئك الأخوة فعلوا ما فعلوا، وقد عزموا علىٰ أن يتوبوا إلىٰ الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ إذ قالوا: ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾ والعزم علىٰ التوبة من الذنب بعد فعله لا يُحل مواقعة الذنب؛ بل يأثم العبد بمجرد المواقعة، ولعله يعزم علىٰ التوبة من الذنب بعد مواقعته فلا يوفق إلىٰ ذلك؛ كما قال الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ [الأنفال:٢٤] في سورة الأنفال، قال علقمة: هو الرجل يريد أن يتوب فلا يتوب ويريد أن يهتدي فلا يهتدي، فقد يقع في قلب الإنسان أنه يذنب ثم يعزم بعد الذنب أن يتوب، وما يدري المسكين أنه ربما أذنب فجرّه ذلك الذنب إلىٰ المسارعة في المعاصي فلم يوفق إلىٰ التوبة منها، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: "الذنوب جراحات وربما أصاب جَرْحٌ في مقتل"، وربما أذنب العبد ذنبا لم يتمكن من التوبة منه بعد وقوعه، وأشد ما يكون هذا في البدع المخالفة للشريعة، وقد جاء في حديث عند أحمد وغيره صححه بعضهم وفيه مقال أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الله لا يقبل توبة صاحب بدعة**» قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ لما سئل عن هذا الحديث في ما ذكره ابن القيم في «بدائع الفوائد» والسفاريني في «غذاء الألباب» قال: لا يوفق إلىٰ التوبة. انتهىٰ كلامه، وذلك أن صاحب البدعة يعملها دينا ويتقرب بها إلىٰ الله فيكون ذلك بينه وبين تركها، فينبغي ألا يسوّل العبد لنفسه مواقعة الذنوب ويمنيها التوبة منها، فإنه ربما واقع الذنب ثم لم يتيسر له

التوبة منه.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ أن من حكمة الله عَزَّوَجَلَّ ورحمته بيعقوب ما قدّره عليه من الفرقة التي أحدثت له من الحزن والمصيبة ما أوجب رفعته في مقامات الدنيا والآخرة، وكأن الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أرىٰ يعقوب عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أثر تميز بين الأولاد بما وقع من أولئك الأولاد في حق أخيهم ثم بادر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عليه من الشدة والحزن، وفي هذا غاية التأديب ليعقوب عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إذ عرف ما يؤول إليه الأمر إذا فرّق بين أولاده وهذا يوجب أن يكون عادلا بينهم فيما يستقبل من حاله.

ومن فوائدها: الحث علىٰ التحرز مما يخشىٰ ضره لقوله: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾ [يوسف:٥] وما فيها من التأكيد عليهم في حفظه حين أرسله معهم، ثم عند إرسال أخيه بنيامين بعد ذلك أخذ عهودهم ومواثيقهم علىٰ ذلك. فالإنسان مأمور بالاحتراز، فإن نفع فذاك، وإلا لم يلم العبد نفسه.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ **فائدة ثانية** من فوائد قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهي الحث علىٰ التحرز مما يخشىٰ ضرره، ولذلك لقوله سبحانه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾ فحذَّر يعقوب عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ابنه يوسف من قص تلك الرؤيا علىٰ أخوته؛ لأن ذلك ينشأ كيدهم له، وفي هذا أمر بالتحرز مما يخشىٰ ضرره في المستقبل، وقد وقع هذا مرة ثانية من يعقوب عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إذ قال لبنيه: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ﴾ [يوسف:٦٧]، وهو أمرَهم بهذا الأمر حثًّا علىٰ التحرز من مما يخشىٰ ضرره.

ومنها أن من الحزم إذا أراد العبد فعلا من الأفعال أن ينظر إليه من جميع نواحيه ويقدر كل احتمال ممكن، وأن الاحتراز بسوء الظن لا يضر إذا لم يحقّق؛ بل يحترز من كل احتمال يخشىٰ ضرره، ولو تضمن ظن السوء بالغير إذا كانت القرائن تدل عليه وتقتضيه، كما في هذه الآية، وكما قويت القرائن في قوله: ﴿هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ﴾ [يوسف:٦٤] فإنه سبق لهم في أخيه ما سبق فلا يلام يعقوب إذا ظن بهم هذا الظن، وإن كانوا في الأخ الأخير لم يجر منهم تفريط ولا تعدّ.

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في هذا الفصل **فائدة ثالثة**: وهي أنه من الحزم وكمال العقل إذا أراد العبد فعلا أن ينظر إلىٰ ذلك الفعل من كل جهة، ويقدر كل احتمال ممكن، فيجعل لهذا الأمر وجوها عدة

باعتبار ما قد يتطرق عليها حتىٰ إذا وقع علىٰ أحدها لم يكن ذلك مفاجئا له؛ بل كان متوقعا منه.

ومن جملة ذلك (أن الاحتراز بسوء الظن لا يضر إذا لم يحقّق) يعني إذا لم يكن إعتقادا جازما لأن حال علىٰ المظنون به علىٰ تلك الحال السيئة، وإنما يفعله العبد علىٰ وجه الاحتراز دون كمال الإعتقاد، وفرق بين الجزم بإعتقاد السيئ في حق أحد، وبين توقعه منه، فيحترز منه دون جزم؛ لأنه إذا وقع منه هذا الاحتمال تحرز من مما يتوهم ويخاف ضرره، وقد جاء في الحديث وفيه ضعف «**استعينوا علىٰ قضاء حوائجكم بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود**»، فأُمر العبد من هذا الحديث الذي صححه جماعة بالاحتراز بالكتمان، ومن جملة الاحتراز الظنّ السيئ دون تحقق كما وقع هاهنا، ويقوىٰ الأخذ بهذا الظن السيئ يقوىٰ إذا كان القرائن تدل عليه وتقتضيه كما في هذه الآية، وكما قويت القرائن فيما وقع من يعقوب عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في ما استُقبل من أمر إخوة يوسف مع بنيامين أخِ يوسف الشقيق لما سألوا أباهم أن يأخذوه إلىٰ مصر، فذكرهم بما وقع منهم مع يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فلا يُلام يعقوب إذا ظن بهم هذا الظنّ، والمقصود أن يعلم أن الاحتراز بسوء الظن جائز ما لم يُحقّق أما تحقيق الظن السيء بدون بينة في حق أحد فهذا ذنب لا يجوز.

ومنها الحذر من الذنوب، التي يترتب عليها ذنوب أخر، ويتسلسل شرها، كما فعل إخوة يوسف بيوسف، فإن نفس فعلهم فيه عدة جرائم في حق الله وفي حق والديه وقرابته وفي حق يوسف؛ ثم يتسلسل كذبهم كلما جرىٰ ذكر يوسف وقضيته، أخبروا بهذا الكذب الفظيع، ولهذا حين تابوا وخضعوا وطلبوا من أبيهم السماح: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ٩٧﴾ [يوسف].

ذكر المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا **فائدة رابعةً في هذا الفصل وهي: التحذير من الذنوب العظيمة التي يترتب علىٰ فعلها فعل** (ذنوب أخر ويتسلسل شرها، كما فعل إخوة يوسف بيوسف، فإن نفس فعلهم فيه عدة) ذنوب (في حق الله وفي حق والديه وقرابته وفي حق يوسف) عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ثم تسلسل كذبهم وبهتانهم كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ في هذه القصة، ولذلك ذكروا أنهم كانوا خاطئين، والخاطئ وصفٌ يتحقق في من عظُم ذنبه، ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في حق أهل النار: ﴿لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ ٣٧﴾ [الحاقة]، فلما عظمت ذنوبهم وصار مآلهم النار صار ذلك طعامهمم، وأمهات الذنوب هي كما سلف الذنوب العظيمة، وقد جاءت الشريعة بتسميتها باسم الكبائر، فإن الكبائر هي أمهات الذنوب، إلا أن هذه الكبائرأيضا متفاوتةٌ في كون أحدها أُمًّا دون الآخر، وأعظم الذنوب أُمًّا يتسلسل به الشر كُلّه هو

الشرك بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ولذلك قال الله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾ [لقمان]، ووصف بكونه ظلمًا عظيمًا؛ لأنه ينتج منه شرورٌ كثيرة، وكما ثبت عند النسائي بسند صحيح من قول عثمان موقوفا ورُوي مرفوعا عند الدراقطني وغيره بأسانيد ضِعاف أنه قال: «الخمر أم الخبائث» وجعلت أُمًّا لأنه يتسلسل منها شرٌّ كثير وخطر عظيم.

ومنها أن بعض الشر أهون من بعض؛ فحين اتفقوا علىٰ التفريق بين يوسف وأبيه، ورأىٰ أكثرهم أن القتل يحصل به الإبعاد الأبدي: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠﴾ [يوسف]، فخفف به الشر عنهم، ولهذا لما وردت السيارة الماء وأدلىٰ واردهم دلوه تبشر بوجوده، وقال: ﴿هَٰذَا غُلَٰمٌۚ﴾ [يوسف:١٩] وكان إخوته حوله فقالوا: إنه غلام آبق منا؛ وتبايعوا معهم: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ۝٢٠﴾ [يوسف] وإنما قصْدهم إبعاده والتأكيد علىٰ مشتريه منهم، ضرورة أن يحتفظ به لئلا يهرب. ومن لطف الله أن الذي أخذه باعه في مصر علىٰ عزيزها، فحين رآه رغب فيه جدًّا وأحبه، وقال ﴿لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ﴾ [يوسف:٢١] فبقي مكرَّما عندهم معفىٰ عن الأشغال الشاقة وغيرها متجرِّدا للخير. وهذا من اللطف بيوسف؛ ولهذا قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ﴾ [يوسف:٢١]، فكان تفرّغه عند العزيز من أسباب تعلمه للعلوم النافعة ليكون أساسا لما بعده من الرفعة في الدنيا والآخرة. كما أن رؤياه مقدِّمة اللطف، وكما أن الله أوحىٰ إليه حين ألقاه إخوته في الجُب: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٥﴾ [يوسف] وهذه بشارة له بالنجاة مما هو فيه، وأنه سيصل إلىٰ أن ينبئهم بأمرهم وهم لا يشعرون. وقد وقع ذلك في قوله: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ۝٨٩﴾ [يوسف] إلىٰ آخر الآيات. وألطاف المولىٰ لا تخطر علىٰ البال.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في هذا الفصل **فائدةً خامسة من قصة يوسف** عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هي: **أن بعض الشر أهون من بعض**، فحين اتفق أخوة يوسف علىٰ الفريق بين يوسف وأبيه ورأىٰ أكثرهم أن القتل يحصل به الأبعاد الأبدي، قال قائلٌ من إخوة يوسف: ﴿لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ فنقلهم من قتله إلىٰ رميه في ظلمة الجب، وذلك ليلتقطه بعض السيّارة يعني: المسافرين الذين يمرّون بالبئر ليتزودوا بمائها، فإنهم يرفعونه من البئر ثم يُخرجونه إليهم ويضمونه إلىٰ رحالهم، فيكون

بين أرحُلهم، فينتقل من هذه البلاد التي فيها إلىٰ بلاد المسافرين التي يستقرُّون فيها، ولهذا لما وردت السيارة وهم القوم المسافرون الماء (وأدلىٰ واردهم) يعني: من بعثوه ليسقيهم أدلىٰ دلوه (تبشر بوجوده وقال: ﴿هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾) ثم كان أخوتُه بمكان قريب منه؛ فقالوا:إنه غلام أبق منا، وتبايعوه معهم.

من أين ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ وصف آبق يعني: هارب مع أن القرآن ليس فيه ذلك؟

[الجواب] وجوده في الجُب، الأصل لو كان غير آبق يكون في العلو أم في السفل، يكون في العلو، ولما كان في الجب كان مختفيا، ولهذا لما كان في الجب لم يكن مقيدًا؛ لأنه لو كان مقيدا عُلم أنه بغير اختياره وإرادته، ولما كان مطلقا طليقًا وهو في الجب عند ذلك صح فيه وصف أنه آبق، فقولهم: ﴿هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ فيه الإشارة إلىٰ أنه آبق لأنه كان في الجب، ولهذا جاء التأكيد أنه باعوه بثمن بخس، والغلام الآبق هو الذي يباع بثمن بخس أم الغلام الذي نافع لسيده؟ الغلام الآبق، أما النافع لسيده يباع بثمن عظيم.

ثم ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ أنَّ قصد هؤلاء الإخوة مما فعلوا ليوسف إبعاده وتأكيد علىٰ مشتريه ضرورة أن يحتفظ به أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعد ذلك لطف بعبده يوسف، فباعه لك الرجل الذي اشتراه باعه علىٰ عزيز مصر، فرغب فيه غزيزُ مصر وأكرم مثواه وأعفاه من الأعمال الشاقة، وجرّده للخير، فتمكن يوسف من أسباب تعلم العلوم النافعة في ذلك الزّمن عند عزيز مصر، وكان ذلك مُقدمةً لرِفعته في الدُّنيا والآخرة، كما أن رؤياه مُقدمةً للطف به، وأوحىٰ إليه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بما أوحىٰ من أنه يخبِر أخوانه عما فعلوا، وبذلك بشارةٌ له بالنجاة مما هو فيه، وكل هذا من النِّعم التي أنعم الله عَزَّوَجَلَّ بها علىٰ يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ومن ألطاف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ التي لا تخطُر علىٰ بال.

ومنها: أن العبرة في حال العبد بكمال النهاية لا بنقص البداية، وذلك لأن إخوة يوسف جرىٰ منهم ما جرىٰ من هذه الجرائم؛ لكن في آخر أمرهم ونهايته تابوا إلىٰ الله، وطلبوا السماح من أخيهم يوسف ومن والديهم الاستغفار، فحصل لهم السماح التام والعفو الكامل، فعفا الله عنهم وأوصلهم إلىٰ الكمال اللائق بهم. قيل: إن الله جعلهم أنبياء، كما قاله غير واحد من المفسرين في تفسير الأسباط: إنهم إخوة يوسف الاثنا عشرة. وقيل: بل كانوا قوما صالحين؛ كما قاله آخرون؛ وهو الظاهر؛ لأن المراد بالأسباط قبائل بني إسرائيل، وهو اسم لعموم القبيلة لا لأولاد يعقوب الاثني عشر منهم، فهم آباء الأسباط وهم من الأسباط ولهذا في رؤيا يوسف رآهم بمنزلة الكواكب في إشراقها وعلوها، وهذه صفة أهل العلم والإيمان والله أعلم.

ولهذا تفسر رؤيا الشمس والقمر والكواكب بالعلماء والصالحين، وقد تفسر بالملوك، والمناسبة ظاهرة.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا **فائدة سادسة من الفوائد المنتظمة** في هذا الفصل وهي: أن العبرة في وصف العبد كمالُ نهايته لا نقص بدايته؛ لأن العبد في أول أمره يكون علىٰ حال النقص، ثم لا يزال يترقّىٰ حتىٰ يصل إلىٰ مرتبة العليا، وقد ذكر هذا المعنىٰ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في «البداية والنهاية» فقال: العبرة بكمال النِّهاية لا بنقص البداية، وقد وقع هذا في حق إخوة يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فإنهم في مبدأ أمرهم قارفوا ذنوبًا وأخطؤوا في حق أبيهم وأم يوسف وأخيهم يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ثم عفا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنهم وغفر ذنوبهم وأوصلهم إلىٰ الكمال اللائق بهم، وقد اختلف أهل العلم في الكمال الذي صاروا إليه علىٰ قولين اثنين:

أحدهما: أنهم صاروا أنبياءً وهم الأسباط المذكورون في القرآن.

والقول الثاني: أنهم كانوا قوما صالحين.

وهذا القول الثاني أصح وأظهر، فالأسباط هي قبائل بني إسرائيل وهو اسمٌ لعموم القبيلة، والأنبياء لا تقع منهم الذُّنوب التي وقعت لإخوة يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فالأصح أن أخوة يوسف كانوا قوما صالحين، ولم يكونوا من الأنبياء والمرسلين، ثم كانوا هم آباء الأسباط، والأسباط هي بطون بني إسرائيل كما يقال في العرب قبائل، فالبطون من العرب قبائل، ومن بني إسرائيل أسباط، وكان إخوة يوسف هم آباء أسباط بني إسرائيل، ولهذا كانوا في رؤية يوسف بمنزلة الكواكب في إشراقها وعلوها، فإنهم كانوا قوما صالحين، خرج من ذراريهم أسباط بني اسرائيل الإثنا عشر، وكانت فيهم الأنبياء.

ثم ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ من قواعد الرؤيا أن الرؤية الشمس والقمر والكواكب تفسر بالعلماء الصالحين، وهذا في الغالب الأعم لما لها من الرفعة، وقد تفسر بالملوك، وذلك أنهم لهم رفعةً تناسبهم وهي رفعتهم في الدنيا.

ومنها تكميل يوسف صلوات الله عليه لمراتب الصبر، الصبر الاضطراري: وهو صبرٌ علىٰ أذية إخوته وما ترتب عليها من بعده عن أبويه وصبره في السجن بضع سنين.

والصبر الاختياري: صبره علىٰ مراودة سيدته امرأة العزيز مع وجود الدواعي القوية من جمالها وعلو منصبها، وكونها هي التي راودته عن نفسه وغلقت الأبواب وهو في غاية ريعان الشباب، وليس عنده من

قرابته ومعارفه الأصليين أحد. ومع هذه الأمور، ومع قوة الشهوة، منعه الإيمان الصادق والإخلاص الكامل من مواقعة المحذور. وهذا هو المراد بقوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف:٢٤]؛ فهو برهان الإيمان الذي يغلب جميع القوىٰ النفسية فكان هو مقدّم السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وهو رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال؛ فقال: إني أخاف الله.

ثم بعد ذلك راودته المرأة وراودته، واستعانت عليه بالنسوة اللاتي قطّعن أيديهن فلم تحدثه نفسه، ولم يزل الإيمان ملازمًا له في أحواله حتىٰ قال بعدما توعدته بقولها: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝٣٢ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف] فاختار السِّجن علىٰ مواقعة المحظور؛ ومع ذلك فلم يتكل علىٰ نفسه؛ بل استغاث بربه أن يصرف عنه شرهن، فاستجاب له ربّه فصرف عنه كيدهن، إنه هو السميع العليم. وكما أنه كمل مراتب الصبر فقد كمل مراتب العدل والإحسان للرعية حين تولىٰ خزائن البلاد المصرية، وكمّل مراتب العفو والكرم حين قال له إخوته: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ۝٩١ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٩٢﴾ [يوسف]، فارتقىٰ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلىٰ أعلىٰ مقامات الفضل والخير والصدق والكمال، ونشر الله له الثناءين الكاملين في العالمين.

ذكر المصنف رَحِمَهُٱللَّهُتَعَالَىٰ هنا فائدة سابعة منتظمة في هذا الفصل من فوائد قصة يوسف عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ وهي: أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كمّلَ ليوسف مراتب الصبر والعدل:

فأما الصبر فذلك أنه جمع بين الصبر الاضطراري والصبر الاختياري، فقد صبر اضطرارا علىٰ أذية أخوته، وما ترتب عليها من بُعده عن أبويه، وما وقع من سجنه بضع سنين، وأما صبره الاختياري فهو صبره علىٰ مراودة سيدته امرأة العزيز عن نفسه مع وجود الدواعي القوية من جمالها وعلو منصبها وكونها هي الداعية إلىٰ نفسها وتغليقها الأبواب وهو في غاية ريعان الشباب.

ولا ريب أن الصبر الاختياري أشد من الصبر الاضطراري، فإن العبد قد يضطر إلىٰ شيء فيستسلم له استسلاما، وأما الاختيار فإنه يشق علىٰ النفس ويعسر.

ولهذا استعان يوسف عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ بما يسَّر الله عَزَّوَجَلَّ جل له من البرهان، إذ رأىٰ برهان ربه فكان صارفًا له عن جميع المرادات النفسية، وسيأتي في كلام المصنف رَحِمَهُٱللَّهُتَعَالَىٰ بيان معنىٰ البرهان الذي رآه يوسف عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، ثم أخبر أن يوسف عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ صار بذلك مُقدَّم السبعة الذين يظلهم

الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله يعني الحديث الوارد في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة وفيه «**رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله**» فكان يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هو أول من ذكره الله عَزَّوَجَلَّ ممَّن وقعت له هذه الحال.

ثم إن أمرأة العزيز لم تقتصر علىٰ ما ذكرت له من الدواعي؛ بل استعانت بالنسوة اللاتي قطعن أيدهن، وحرضن يوسف علىٰ الاستجابة لامرأة العزيز، فاستغاث يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بربه، واختار السجن علىٰ مواقعة المحظور، واستجاب الله عَزَّوَجَلَّ له وصرف عنه الكيد إنه هو السميع العليم.

وأما تكميله لمراتب العدل والإحسان إلىٰ الرعية، فإنه لما تولىٰ خزائن البلاد المصرية كان حفيظا أمينا، فحفظ الأموال العامة ووصّلها إلىٰ أهلها بأمانةٍ تامة، ثم ختم ذلك بالعفو والإكرام لإخوته فعفىٰ عنهم واستغفر لهم.

الفصل الرابع

ومنها أن الإخلاص لله تعالىٰ أكبر الأسباب لحصول كل خير واندفاع كل شر، كما قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾ [يوسف] وفي القراءة الأخرىٰ ﴿ٱلۡمُخۡلِصِينَ﴾؛ أي: الذين أخلصهم الله بخالصة ذكر الدار وهما متلازمتان، فأخلصهم لإخلاصهم له، فمن أخلص لله أخلصه وخلصه من الشرور، وعصمه من السوء والفحشاء.

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا فصلا رابعا، جمع فيه جملةً من فوائد قصة يوسف عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ صدّرها بفائدة عظيمة هي: أن (الإخلاص لله تعالىٰ أكبر الأسباب لحصول كل خير واندفاع كل شر، كما قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾ [يوسف]) وفي القراءة الأخرىٰ ﴿ٱلۡمُخۡلِصِينَ﴾ وكلاهما قراءتان صحيحتان من القراءات العشر، فإذا أخلص العبد أوجب أخلاصه خَلاصه كما قال بعض الصالحين: الخَلاصُ بالإخلاص، فمن أخلص لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ خلصه الله عَزَّ وَجَلَّ من كل شر ووجّهه إلىٰ كل خير، وسبق أن ذكرنا أن الإخلاص هو: تصفية القلب من قصد غير الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، ونظمناه في قولنا:

إخلاصنا تصفية للقلب من قصدٍ لغير الله فاحفظ يا فطن

۞

ومنها ما دلت عليه القصة من العمل بالقرائن القوية من عدة وجوه؛ منها: حين ادعت امرأة العزيز أن يوسف راودها، وقال: هي راودتني عن نفسي؛ فشهد شاهد من أهلها؛ أي: حكم حاكم بهذا الحكم الواضح، وكانت قد شقت قميص يوسف وقت مراودتها إياه: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٦﴾ [يوسف] لأنه يدل علىٰ إقباله عليها، وأن المراودة صادرة منه، ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٧﴾ [يوسف] فكان هذا هو الواقع؛ لأنها تريده وهو يفرّ منها ويهرب عنها فقدت قميصه من خلفه، فتبيّن لهم أنها هي المراودة في تلك الحال؛ وبعد ذلك اعترفت اعترافًا تامًّا حيث قالت: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٥١ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٢﴾ [يوسف]، فمن العمل بالقرائن وجود الصواع في رحل أخيه وحكمهم عليه بأحكام السرقة لهذه القرينة القوية.

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في هذا الفصل **فائدة ثانية** من فوائد قصة يوسف عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهي:

صحة العمل بالقرائن القوية، فإن القرائن التي تحيط بأمرٍ ما قد توجب الأخذ به في حكومةٍ أو فصلٍ بين خصومة، وقد ذكر هذا المعنىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُتَعَالَىٰ وتلميذه ابن القيم في «الطرق الحكمية»، فلمّا وقعت القرينة في الحال الأولىٰ بقدّ القميص من دبر، عُلم أن المرأة كاذبة وأن يوسف صادق، ولمّا وجد الصواع يعني الصاع في رحل أخ يوسف حُكم عليه بحكم السرقة لهذه القرينة القوية، فالقرائن معتدٌّ بها مُعوّلٌ عليها في الأحكام والخصومات في أصح قولي أهل العلم رَحِمَهُمُٱللَّهُتَعَالَىٰ.

ومنها: **أنه ينبغي للعبد أن يبتعد عن أسباب الفتن، ويهرُب منها عند وقوعها**، كما فعل يوسف حين راودته امرأة العزيز. واعلم أن كثيرا من المفسرين ذكروا في تفسير البرهان الذي رآه يوسف حين اعتصم عن الفاحشة إسرائيليات تنافي العقل والدين، وتنافي ما عليه الرسل من الكمال حيث قال بعضهم: تبدىٰ له جبريل في الهوىٰ، أو تبدىٰ له يعقوب عاضا علىٰ إبهاميه أو ما أشبه ذلك من الأمور، التي لو حصلت علىٰ أفجر الناس لامتنع من فجوره، فكلها باطلة.

وكذلك من الأقوال الباطلة ما قاله بعضهم في قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف:٢٤] أي: هم أن يضربها - وهذا تحريف ظاهر. وصاحب هذا القول أراد الفرار من الهم المعروف خشية أن يكون فيه نقص وتنقيص الأنبياء محذورٌ في ذلك، فإن الهم والهوا ونحوها إذا قاومه العبد وقدم عليه الخوف والإيمان فهو كمال؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن]. وكما ثبت في الصحيح مرفوعا: «**من همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله حسنة كاملة**» - فإنه إنما تركها من جرائي، أي تركه لها لأجل الله خوفا من عقابه ورجاء لثوابه من أكبر العبادات. والله أعلم.

ذكر المصنف رَحِمَهُٱللَّهُتَعَالَىٰ هنا **فائدة ثالثة** منتظمة في فوائد هذه الفصل من قصة يوسف عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ؛ وهو أنه ينبغي للعبد أن يبتعد عن أسباب الفتن، ويهرُب منها عند وقوعها، كما فعل يوسف حين راودته امرأة العزيز، ففرّ عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ منها، وقد بوّب البخاري رَحِمَهُٱللَّهُتَعَالَىٰ في كتاب الإيمان في صحيحه (بابٌ من الإيمان الفِرار بالدِّين من الفتن)، ثم ساق إسناده في حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أنَّ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «**يوشك أن يكون خير مالِ العبد المسلم غنمٌ يتبعُ بها مواقع القطر وسعف الجبال، يفرُّ بدينه من الفتن**»، فالعبد مأمورٌ أن يفرّ بدينه من فتن الشبهات والشهوات، وألّا يعرض قلبه لذلك؛ لأن القلوب ضعيفة والشُّبهات خطافة.

ثم ذكر المصنف رَحِمَهُٱللَّهُتَعَالَىٰ ما قاله كثير من المفسرين في تفسير البرهان الذي رآه يوسف حين

اعتصم عن الفاحشة، وأخبر بأن هذه الأقوال منقولةٌ من كتب بني إسرائيل؛ وهي التي يشير إليها العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ باسم الاسرائليات، فالمراد بالإسرائليات: الأقوال المنقولة عن كتب بني اسرائيل كالتوراة والإنجيل، فذكر بعضهم أنَّ جبريل تبدىٰ له في الهواء وهو ينهاه عن ذلك، أو تبدىٰ له يعقوب عاضّا إبهاميه، أو ما أشبه ذلك من الأمر التي لو حصلت لأفجر الناس لامتنع من فجوره.

والصحيح أن البرهان: اسم يعم كل ما ذكره هؤلاء من غير بينة علىٰ تحديد واحد دون آخر، فالبرهان الذي رآه يوسف هو آية عظيمة تبدّت له حالت بينه وبين مواقعة الذنب، ولم يثبت شيء في تعيين هذه الآية، واختار هذا القول شيخ المفسرين أبو جعفر ابن جرير ثم أبو الفداء ابن كثير رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

وشبيه الأقوال الباطلة المذكورة في هذا البرهان ما ذكره بعضهم من تفسير الهم الوارد في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ فذكر بعضهم أنه هم أن يضربها وهذا تحريف ظاهر فإن صاحب هذا القول أراد الفرار من الهم المعروف وهو ما يجري في القلب من إرادة الشيء، ففرّ منه توهّم كونه نقصا، ولا نقص في ذلك؛ بل إن الفرار من الهم الفاسد مما يُمدح به العبد؛ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن] يعني من عظم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فمنعه تعظيمُه من مواقعة الخطيئة، وكما ثبت في الصحيح أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له حسنة كاملة**»؛ لأنه تركها لأجل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وممّا ينبّه إليه أن كثير من الآيات أشكل تفسيرها عل كثير من الناس لاستسلامهم لما نقل فيها من الإسرائليات؛ كما وقع في كلام في كثير من المفسرين في تفسير آية سورة البقرة المتعلقة بهاروت وماروت في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ [البقرة:١٠٢] إلىٰ آخر الآية، فإن كثيرا من المفسرين نقل صفحات طويلة من كلام بني إسرائيل حالت بينهم وبين فهم هذه الآية.

وهذه الآية ظاهرة المعنىٰ من السياق، فإن الله عَزَّوَجَلَّ أنزل ملكين في صورة بشرية لامتحان الناس، وإنزال الملائكة في الصور البشرية ثابتٌ في القرآن والسنة، وامتحان الناس بذلك ثابت في القرآن والسنة، فهذا معنىٰ الآية كما يدل عليه السياق من غير حاجة إلىٰ النظر إلىٰ المنقولات عن بني إسرائيل.

والمقصود أن يتنبه طالب العلم إلىٰ خطر الإسرائليات في الحيلولة بين معرفة العبد التفسير الصحيح للقرآن الكريم.

ومنها: ما عليه يوسف -صلوات الله عليه- من الجمال الظاهر الذي أخذ بلب امرأة العزيز وشغفها

حبا. وحين رأته النسوة قطعن أيديهن وأكبرنه وقلن: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف]، ومن الجمال الباطن وهو العفة والإخلاص الكامل والصيانة.

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا فائدة رابعة منتظمة في هذا الفصل من فوائد قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهو: ما كان عليه –صلوات الله وسلامه عليه – (من الجمال الظاهر الذي أخذ بلب امرأة العزيز وشغفها حبّا)، ومعنىٰ شغفها حبًّا يعني: لامس شغاف قلبها؛ أي: باطنه، (وحين رأته النسوة قطّعن أيديهن وأكبرنه، وقلن: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾) يعني: معاذ الله؛ كما قال مجاهد وغيره، ثم أخبرن عن مرتبة هذا الرجل في هذه السورة فقلن: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ يعني: هذه حال الملك الكريم، وقد ثبت في «صحيح مسلم»: «أن يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أوتي شطر الحُسن» ومن كان علىٰ هذه الحال فإن رؤيته تأخذ بالألباب؛ ومحبتَه تُلامس شِغاف القلوب.

ولم يكن الجمال الذي أوتيه يوسف جمالا ظاهرا يتبدىٰ علىٰ البدن يضمحل مع الأيام والسنين؛ بل قد أوتي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الجمال الباطن أيضا وهو العفة والإخلاص الكامل والصيانة.

والعبد مأمور بتحصيل هذا الجمال أعظم من الأول؛ لأن الأول جمال اضطراري، والثاني جمالٌ اختياري.

فإن جمال الظاهر مرده إلىٰ تقدير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيما يصور العبد عليه.

وأما الجمال الباطن فإن العبد يتجمل بالأخلاق الكاملة والخصال الفاضلة فيتبوأ عند ذلك مقاما حسنا.

ومما يجمل التنبيه إليه في هذا المقام أن كثيرا ممن يتقدمون لخطبة النساء ثم يطلبون رؤية المرأة التي يخطبون لا يقع في قلوبهم إلا طلب الجمال الظاهر، ويغفلون عن أن قصد الشرع من الإذن برؤية المخطوبة ليس الأول فقط؛ بل الأول فقط يمكن فيه الاكتفاء بالنقل عن مخبرٍ صادق يخبر عن صفات المرأة لأنه كيت وكيت، أما الجمال الباطن فلا يتوصّل إليه إلا برؤية العين الباصرة التي تكون مفتاحا لتلاقي الروح؛ وقد ثبت في الصحيح أن النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن الأرواح جنود مجندة»، فإذا حصلت الرؤية بالعين الباصرة عند ذلك حصل تلاقي الأرواح، فإما أن تتعارف فتتآلف وإما أن تتناكر فتتخالف، فيكون هذا مقصودًا في الشرع كما أن الأول مقصود.

ومنها أنه ينبغي للعبد أن يلتجئ إلىٰ الله عند خوف الوقوع في فتن المعاصي والذنوب، مع الصبر

والاجتهاد في البعد عنها، كما فعل يوسف ودعا ربه قال: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣﴾ [يوسف]، وإن العبد لا حول ولا قوة ولا عصمة إلا بالله، فالعبد مأمور بفعل المأمور وترك المحظور والصبر علىٰ المقدور مع الاستعانة بالمَلك الشكور.

ذكر المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في هذا الفصل **فائدة خامسة** من فوائد قصة يوسف عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهو أنه ينبغي للعبد أن يلجأ إلىٰ الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عند خوف الوقوع في فتن المعاصي والذنوب، مع الصبر والاجتهاد في البُعد عنها، كما فعل يوسف ودعا ربه سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأخبر عن حاله: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ﴾ يعني: أميل إليهن ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣﴾ يعني: ممن يعمل علىٰ خلاف العلم كما سيأتي بيانه في كلام المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ.

وسيأتي إن شاء الله تعالىٰ لابن رجب في كتاب «نور الاقتباس» كلامٌ حسن في هذا المقام، فإن مما يتخلص به العبد من المعاصي والذنوب أن يصدق في استغاثته بربه سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والتجائه إليه فيقدر الله عَزَّوَجَلَّ له من الحال ما ينقل قلبه عن التوجُّه إلىٰ تلك المعصية إلىٰ الاستغناء بما أحل الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له، ولا حول ولا قوة للعبد إلا بعصمة من ربه سبحانه، فالعبد مأمورٌ بفعل المأمور وترك المحظور يعني: الممنوع، وأن يصبر علىٰ أقدار الله عَزَّوَجَلَّ مستعينا بربه سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾.

الفصل الخامس

ومنها: فضل الإيمان الكامل واليقين والطمأنينة بالله وبذكره حيث اتصف بها يوسف صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فأوجبت له الثبات في أموره كلها والاشتغال فيما هو بصدده من وظائفه الحاضرة، وهو في أحواله وتنقلاته مطمئن القلب ثابت النفس؛ ليس عنده قلق لبعده عن أبيه وأحبابه، مع ما يعلمُه من شدة الشوق والحب المفرط بينه وبين والديه خصوصا أبوه، وهو يعلم المكان الذي هو فيه ويتمكن من مراسلته، ولكن اقتضت حكمة الله ألا يحصل اللقاء إلا في تلك الحال التي اشتدت مشقتها وعظمت شدتها، فأعانه الله وأيده بروحٍ منه، وهذا من أجل ثمرات الإيمان.

ذكر المصنف رَحِمَهُٱللَّهُتَعَالَىٰ هنا فصلًا خامسًا نظم فيه جملةً من الفوائد صدّرها ببيان فضل الإيمان الكامل واليقين والطمأنيينة بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بذكره، فإنّ الاتصاف بهذه الصفات أوجب ليوسف عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ الثبات علىٰ دين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ مقررا هذا المعنىٰ قال: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۖ﴾[إبراهيم:٢٧]؛ فذكر الله عَزَّوَجَلَّ الوصف الذي يحصل به الثبات وهو الإيمان، فلم يذكر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أنَّ أحدا من خلقه يُثبت لأجل جمال صورته أو حسن بيانه أو قوة جنانه أو سلالة نسبه، وإنما يثبت علىٰ قدر إيمانه، فكلما قوي إيمانُه كلما ثبته الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ الحق في الدنيا والآخرة، وكلّما ضعف الإيمان تشوش ثبات العبد علىٰ هذا الطريق، وهذا ما وقع ليوسف عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ فإنه لما كان إيمانه كاملًا ويقينه راسخًا وقلبه مطمئنا بذكر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ثبت الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قلبَه، فلم يتلجلج خاطره ولم تتشوش حاله بسبب بعده عن أبيه وأحبابه مع شدة الشوق إليهم والحب لهم.

ومنها أنه لا بأس بالاستعانة بالمخلوق في الأمور العادية التي يقدر عليها بفعله أو قوله وإخباره؛ كما قال يوسف ﴿لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف:٤٢] ومن كمال إخلاص يوسف وكمال خلقه أنه لم يعاتب هذا الذي وصاه أن يذكره عند ربه فنسي، وجاءه يسأله عن رؤيا الملك، فأجابه، ولم يعاتبه أو يعنفه أو يعامله بسوء خلق. وبحسن الخلق تحصل للعبد الحياة الطيبة العاجلة والآجلة.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُٱللَّهُتَعَالَىٰ هنا **فائدةً ثانية** في هذا الفصل من فوائد قصة يوسف عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ

وهي: **أنه لا بأس بالاستعانة بالمخلوق في الأمور العادية التي يقدر عليها بفعله أو قوله وإخباره** كما وقع من يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فإنه استعان بالرجل الذي ظن أنه ناجٍ منهما، وهو الذي رأىٰ أنه يعصر خمرا استعان به في سبيل تخليصه من بلاء السجن فقال له: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني أخبر الملك بقصتي واطلب السّعي في تخليصي من هذه البلوىٰ التي أنا فيها.

ثم إن ذلك الرجل نسي حتىٰ وقت رؤيا الملك، لما جاء إلىٰ يوسف كان من كمال إخلاص يوسف لربه وكمال خلقه أنه لم يعاتب هذا الذي أوصاه أن يذكره عند ربه فنسي، وجاءه يسأله عن رؤيا الملك فأجابه ولم يعاتبه أو يعنفه أو يعامله بسوء خلق، وهذا من كمال توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإنّ العبد وإن أمر باتخاذ الأسباب فإنه منهي عن التعلق بها، والتعلق بالسبب إذا عظُم كان من جملة الشرك الأصغر، ولما كان توحيد يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كاملًا لم يتعلَّق بهذا السبب، فلما قدِم عليه الرجل كان المضمون أن يكون أول أمره أن يسأله عنه عتابه إذ لم يذكره عند ربه ولم يسع في تخليصه من السجن، فلم يواجهه يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بهذا؛ بل استقبله وفسر له الرؤيا ثم كان هذا سببا لتخليص يوسف من السجن.

ومنها: أن الإنسان إذا وجهت له تهمة هو بريء منها لا يلام علىٰ طلب الطرق والوسائل التي يحصل بها الوضوح والبيان العام للناس؛ كما فعل يوسف صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع طول مكثه لما جاءه الرسول يستدعيه للحضور عند الملك، قال: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف:٥٠] إلىٰ آخر الآية، حيث بان لكل أحد براءته التامة التي لا شبهة فيها فلم يخرج من السجن لمواجهة الملك إلا في حالة براءته وهيبته ورفعته وتعظيمٍ منهم لعلمه وفضله ونزاهته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا **فائدة ثالثة** ختم بها هذا الفصل وهو: أن المتهم إذا كان بريئا من التهَمة التي ألقيت عليه، فإنه لا يلام إذا طلب طريقا من الطرق التي تحصل بها أظهار براءته ودفع التهَمة عنه، كما فعل يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إذ طلب ذلك الرسول الذي استدعاه للحضور عند الملك، أن يرجع لنظر فيما وقع من أولئك النسوة فينظر في تلك المسألة السابقة حتىٰ تظهر براءة يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، (فلم يخرج من السجن لمواجهة الملك إلا في) حال (براءته وهيبته ورفعته).

وهذا الأمر مناط بالمصالح والمفاسد عند العقلاء، فإذا كان الأمر يقتضي أظهار هذه البراءة بطريق من الطرق مشتملا علىٰ مصالح عظيمة مخلصا من مفاسد ضارة فحينئذ لا بأس بسلوكه، وأما إذا كان

مشتملا علىٰ حدوث مفاسد ربما وازنة المصالح التي في مقابله من أظهار البراءة فإن الأولىٰ وأدُّ ذلك الأمر مثل هذه، والغفلة عنه والركون إلىٰ مدافعة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن عباده المؤمنين؛ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج:٣٨]، وفي القراءة الأخرىٰ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، فمن رضي بدفع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عنه كفاه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ طلب هذه الطرق.

وفي سيرة الإمام أحمد رَحِمَهُٱللَّهُتَعَالَىٰ أنَّ ابنه عبد الله ذكر أناسا يتكلمون فيه، وسأله أن يردّ عليهم فقال الإمام أحمد بلسان عباد الله المتقين: يا بني الله يكفي، فمن اكتفىٰ بدفاع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كفاه الله عَزَّوَجَلَّ الشرور.

الفصل السادس

ومن ذلك أن يوسف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جمع لهم بين تعبير رؤيا الملك وبين ما ينبغي لهم أن يفعلوه ويدبروه في سنين الخصب، للاستعداد لسنين الجدب؛ وحين قال له الملك: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝٥٤﴾ [يوسف] أي تتمكن من أمور المملكة وتدابيرها، مفوض إليه الأمور لأمانته وكفاءته وكمال الثقة به، فالملك هو الذي ابتدأ توليته وتفويض الأمور إليه، وهو الذي اقترح أن يكون علىٰ خزائن الأرض وجبايتها وتصريفها لأجل عموم المصلحة، ولهذا ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝٥٥﴾ [يوسف] أي: أحفظ الحاصلات والغلات وأعلم كيفية تصريفها وتدبيرها، فحينئذ أعتني في سنين الخصب بالزروعات الهائلة وجباها في مخازنها، وفي سنبلها، وأجتهد في الاقتصاد في أكلهم أيام السنين الخصيبة لتتوفر الغلال ويكون لها النفع العام. فحين جاءت السنون المجدبات وعمّ الجدب للأقطار المصرية وما جاورها، وفني ما عند الناس جعلوا يقصدون مصر من كل جهة، جعل يكيل لهم كيل العدل والاقتصاد بحسب الحاجة، لا يزيد كل واحد علىٰ حمل البعير خوفا من أن يجتاحه المحتكرون ويحصل الضرر علىٰ المحتاجين المعوزين. ولهذا من جملة ما عالج إخوة يوسف أباهم لإرسال بنيامين معهم أن قالوا: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ﴾ [يوسف:٦٥] أي: إذا كان معنا حصل لنا زيادة كيل بعير لأن عائلة يعقوب كثيرون، يحتاجون إلىٰ مِيرة كثيرة، فحصل لهذه الأعمال الجليلة علىٰ يد يوسف نفعٌ للخلق عظيم، وإزالة ضرورات ودفع حاجات وتهوين للشدات والكُربات.

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا فصلا سادسًا نظم فيه جملةً من فوائد قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، صدّرها ببيان ما وقع من يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من الجمع بين حسن التعبير وحسن التدبير، فقد أحسن في تعبير رؤيا الملك، وبين ما ينبغي لهم أن يفعلوه خلال سنين الخصب والجدب، ثم أحسن عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ التدبير بعد أن فوض إليهم الملك الأمور لأمانته وكفاءته وكمال الثقة به، فاختار يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن يكون علىٰ خزائن الأرض وذلك لحفظه وعلمه فهو له قدرة في حفظ تلك الغلاة، وله علم في كيفية تصريفها فلما وقع ما وقع من السنون المجدبات، أحسن يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ تصريف ما خزن في السنوات الماضيات عن الناس، فعم الرخاء والسعة علىٰ الخلق جميعا، فكان كل أحدٍ يأخذ بحسب حاجته، ولهذا طلب أخوة يوسف من أبيهم أن يرسل معهم بنيامين ليستكثروا من الأخذ لأن كل قدر محدود بحسب عدد من يمتارون من تلك الميرة الكثيرة، ويتزودون

بما يؤتيهم يوسف عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

ومنها مشروعية الضيافة، وأنها من سنن الرسل، وقررتها هذه الشريعة لقول يوسف: ﴿أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ۝٥٩﴾ [يوسف].

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا **فائدة ثانية** من فوائد قصة يوسف عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهي: **مشروعية الضيافة، وأنها من سنن المرسلين**، وقد قررتها هذه الشريعة، والشاهد فيها قول يوسف عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ﴿وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ۝٥٩﴾ يعني خير المضيفين، وقد وقع هذا من نبي الله إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كما في قوله تعالىٰ: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝٢٤﴾ [الذاريات] إلىٰ آخر الآيات، وقررتها هذه الشريعة كما جاء في الصحيحن أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه**».

ومنها أن استعمال الأسباب الواقية من العين أو غيرها غير ممنوع؛ بل جائز، أو مستحب بحسب حاله، وإن كانت جميع الأمور بقضاء الله وقدره، لكن الأسباب الواقية أو الدافعة من قضاء الله وقدره، بشرط أن يفعلها العبد وهو معتمد علىٰ مسببها، لأن يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ حين أراد أن يوصي بنيه لما أرسل بنيامين معهم، ﴿قَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ﴾ [يوسف:٦٧] وأخبر تعالىٰ أنهم امتثلوا أمر أبيهم، وأن هذا الأمر لم يغن شيئا إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها وهو شفقة الوالد علىٰ أولاده، والشريعة جاءت بإثبات الأسباب النافعة الدينية والدنيوية، والحث عليها، مع الاستعانة بالله، كما ثبت عنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**احرص علىٰ ما ينفعك واستعن بالله**».

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في هذا الفصل فائدة ثالثة من فوائد قصة يوسف عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هي أن استعمال الأسباب الواقية من العين أو غيرها غير ممنوع بل جائز، ومستحب بحسب حاله، وإن كانت جميع الأمور بقضاء الله وقدره،ثم ذكر الدليل علىٰ ذلك وهو ما أمر به يعقوب عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بنيه فقال لهم: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ﴾ وهذا اتخاذٌ لسبب، وقد ينفع هذا الاتخاذ وقد يقضي الله عَزَّ وَجَلَّ أمرا كان مفعولا، والذي حمل يعقوب علىٰ ما فعل شفقته علىٰ أولاده، وخوفه أن تصيبهم العين فأرشدهم إلىٰ سببٍ يكون واقيا بإذن الله عَزَّ وَجَلَّ من ذلك، وقد جاءت هذه الشريعة بإثبات الأسباب النافعة الدينية

والدنيوية والحث عليها مع الاستعانة بالله كما في «صحيح مسلم» أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «احرص علىٰ ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجِز»، فأرشد إلىٰ ثلاثة أمورٍ عظيمة تحصل بها تحصيل المطلوب كما بيناه في مقام سابق.

ومنها جواز استعمال الحيل والمكايد التي يتوصل بها إلىٰ حق من الحقوق الواجبة والمستحبة أو الجائزة، كما استعمل يوسف ذلك مع أخيه، حيث وضع السقاية في رحل أخيه، ثم أذن مؤذن بعد رحيلهم: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ [يوسف:٧٠ - ٧٦] فعمل مع أخيه هذا العمل ليتوصل به إلىٰ بقائه عنده من غير شعور منهم. فلما تقرر عندهم أنه هو الذي أخذ الصواع استفتاهم عن حكم السارق في دينهم فقالوا: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٥﴾ [يوسف] أي: جزاء السارق أن يتملكه المسروق منه؛ فحكموا علىٰ أنفسهم هذا الحكم الذي هو المقصود ليوسف. ولو أجرىٰ عليه حكم ملك مصر لكان له حكم آخر. فيسر الله هذا العمل وهذا الحكم ليبقىٰ أخوه عنده. فالحيل التي علىٰ هذا النوع لا حرج فيها، وإنما المحرم الحيل والمكايد التي يتوصل بها إلىٰ إحلال المحرمات أو إسقاط الواجبات.

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا فائدةً رابعةً نظمها في هذا الفصل من فوائد قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هي: جواز استعمال الحيل والمكايد الموصلة إلىٰ حق من الحقوق، والمراد بهذه الحيل المأذون بها، الحيل التي لا تشتمل علىٰ مخالفة الشريعة، أما الحيل التي يتوصل بها إلىٰ إحلال المحرمات أو إسقاط الواجبات فإنها محرمة علىٰ كل حال، وهذا باب عظيم من أبواب الفقه قد أفرده جماعة بالتصنيف منهم شيخ الاسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ وقد بين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هو وتلميذه ابن القيم في «الطرق الحكمية» و«إعلام الموقعين» في آخرين، أن الحيل تنقسم إلىٰ هذين النوعين الاثنين:

وأولهما: الحيل المشروعة، وهي التي لا تخالف الشريعة.

والثاني: الحيل الممنوعة، وهي المخالفة لشريعة.

وقد استعمل يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حيلةً في اسخلاص أخيه بنيامين من بين إخوته، وذلك أنه وضع صواع الملك يعني: الصاع الذي يكال به، وضعه في رحل أخيه، ثم استخرجه من وعاء أخيه، فكان ذلك سببا لأخذ يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لأخيه بنيامين جزاءً له بعد أن قرر إخوته علىٰ الحكم، فأخبروا أن

جزاؤه من وُجد في رحله فهو جزاؤه يعني جزاؤه أن يتملكه الملك ويضمّه إليه، فتملكه يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بهذه الحيلة وضمه إليه.

ﰡﰡ◈ﰢﰢ

ومنها استعمال المعاريض عند الحاجة إليها؛ فإن في المعاريض مندوحة عن الكذب، وذلك من وجوه، منها قوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ﴾ [يوسف:٧٦] ولم يقل سرقها؛ وكذلك قوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف:٧٩] ولم يقل: (من سرق متاعنا). وإذا قيل: إن هذا اتهام للبريء. قيل: إنما فعل ذلك بإذن أخيه ورضاه؛ وإذا رضي زال المحذور.

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا **فائدة خامسة** من فوائد قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هي استعمال المعاريض عند الحاجة، والمراد بالمعاريض: الكلام الذي يرسل فيتوهم سامعه شيئا ويريد به المتكلم شيئا آخر، وهو الذي يسميه علماء البلاغة بالتورية، وإنما أذن بالمعاريض لما فيها من الدفع والتوسعة والإغناء عن الكذب، وقد روي هذا مرفوعا وإنما يثبت موقوفا من كلام جماعة من السلف «إن في المعاريض ممدوحة عن الكذب»، ووقع التعريض في الكلام في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ﴾، ولم يقل: سرقها، وكذلك قال: ﴿مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ ولم يقل: «من سرق متاعنا»، فإن السامع إنما يفهم معنىٰ السرقة، وأما المتكلم فلم يرد هذا المعنىٰ.

ﰡﰡ◈ﰢﰢ

ومنها أن الإنسان لا يحل له أن يشهد إلا بما يعلم لقولهم: ﴿وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا﴾ [يوسف:٨١] وإن العلم يحصل بإقرار الإنسان علىٰ نفسه، وبوجود المسروق ونحوه معه وفي يده أو رحله.

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا فائدة سادسة: أن من أصول الشهادة ألا يشهد الانسان إلا علىٰ ما يعلمه متيقنا منه كما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ هاهنا ﴿وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا﴾، والفقهاء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ يذكرون في ذلك الحديث المروي عند ابن عدي وغيره وإسناده ضعيف أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لرجل وهو يشير إلىٰ الشمس: «علىٰ مثلها فاشهد» وإسناده ضعيف، والمقصود أن الإنسان لا يشهد إلا بما بعلم وهذا أصلٌ ثابت بأدلة كثيرة.

ﰡﰡ◈ﰢﰢ

وفيها أن وجود المسروق بيد السارق بينة وقرينة علىٰ أنه السارق، ولذلك حكم وحكموا علىٰ أخي يوسف بحكم السارق.

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا **فائدة سابعة ترجع إلىٰ الأخذ بالقرائن** الذي تقدم، وهو أنه وجود المسروق بيد السارق بينة وقرينة؛ يعني: حجة ودليل يرشد إلىٰ أن ذلك الآخذ هو السارق له، ولهذا اجتمع للحكم بالسرقة علىٰ أخ يوسف اجتمع عليه حكم يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وحكم إخوانه، وقد حكم يوسف في الظاهر السرقة وفي الباطن خلاف ذلك، وأما إخوة يوسف فإنهم توهموا السرقة من أخيهم بنيامين وهو من ذلك بريء.

ومنها: هذه المحنة العظيمة التي امتحن الله بها نبيه وصفيه يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

حيث قضىٰ بالفراق، بينه وبين يوسف، هذه المدة الطويلة التي يغلب علىٰ الظن أنها تبلغ ثلاثين سنة فأكثر، من ذلك أنه بقي مدة في بيت العزيز قبل السجن في الإمكان أن تكون من سبع السنين إلىٰ العشر أو نحو ذلك، علىٰ وجه الخرص والحزر، ثم مكث بضع سنين في السجن، والأكثر أنها سبع سنين، ثم بعد خروجه دخلت السبع السنين المخصبات، فهذه نحو إحدىٰ وعشرين سنة، ثم دخلت السبع المجدبات وتردد إخوة يوسف إليه مرات، والظاهر أن اللقاء كان في آخرها، فهذه تقارب الثلاثين ونحوها؛ وهو في هذه المدة لم يفارق الحزن قلبه، وهو دائم البكاء حتىٰ ابيضت عيناه من الحزن وفقد بصره وهو صابر لأمر الله، محتسب الثواب عند الله، قد وعد من نفسه الصبر، ولا شك أنه وفىٰ بذلك. ولا ينافي ذلك قوله: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف:٨٦] فإن الشكوىٰ إلىٰ الله لا تنافي الصبر، وإنما ينافي الصبر الشكوىٰ إلىٰ المخلوق.

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا **فائدة ثامنة في هذا الفصل** من فوائد قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهي: المحنة العظيمة التي ابتلي فيها نبي الله يعقوب عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إذ قرر مدة طويلة تبلغ ثلاثين سنة فأكثر كما قدره المصنف وهو مفارق لابنه يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وفي تلك الحال لم يفارقه الحزن والبكاء حتىٰ ابيضت عيناه وذهب بصره وهو صابر لأمر الله محتسبا لثواب عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم بين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ من خبر يعقوب أنه كان يبثّ شكواه وحزنه إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والشّكوىٰ إلىٰ الله لا تنافي بالصبر، وإنما الذي ينافي الصبر الشكوىٰ إلىٰ المخلوق، والمراد بالشكوىٰ إلىٰ المخلوق: ذكر المصاب علىٰ وجه التسخط والجزع، أما إذا ذُكر المصاب دون سخط ولا جزع، فإن ذلك لا يكون من جملة الشكوىٰ المذمومة، فيجوز للعبد أن يخبر عن حاله من غير جزعٍ ولا تسخط، ولا يكون فعله من جملة الشكوىٰ إلىٰ غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومنها: أن الفرج مع الكرب.

فإنه لما اشتد الكرب بيعقوب ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف:٨٤]، قال: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوسف]، وهم حين دخلوا علىٰ يوسف وقفوا بين يديه موقف المضطر، فقالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ﴾؛ أي: قليلة حقيرة لا تقع الموقع ﴿فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ٨٨﴾ [يوسف] فحينئذٍ لما بلغ الضر منتهاه من كل وجه، عرفهم بنفسه، فحصل بذلك البشارة الكبرىٰ لأبويه وإخوته وأهلهم، وزال عنهم الضر والبأساء، وخلفه السرور والفرح والرخاء.

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا **فائدة تاسعة** في هذا الفصل من فوائد قصة يوسف عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهي: أن الفرَج مع الكرب، وهذا أصلٌ عظيم مقرر في الشريعة وسيأتي بيانه في كتاب «نور الاقتباس» لأبي الفرج ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ، فإنه كلما اشتد الكرب كلما قرب الفرج، ولما اشتد الكرب بيعقوب وابيضت عيناه ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف:٨٤] جاء الفرج من الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولما أشتد الكرب بأبناء يعقوب عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ولحقهم الضر وبلغ بهم العوز أشد المبلغ، جاءهم الفرج فعرفهم يوسف بنفسه فحصل لهم بذلك الخير الكثير.

ومنها: أن الله يبتلي أنبياءه وأصفياءه بالشدة والرخاء، والسرور والحزن، واليسر والعسر، ليستخرج منهم عبوديته في الحالين بالشكر عند الرخاء والصبر عند الشدة والبلاء، فتتم عليهم بذلك النعماء كما ابتلىٰ يعقوب ويوسف، وكذلك غيرهم من أنبيائه وأصفيائه.

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا **فائدة عاشرة** في هذا الفصل من فوائد قصة يوسف عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهي: أن الله عَزَّوَجَلَّ يبتلي أنبياءه وأصفياءه بالشدة والرخاء، والسرور والحزن، ليستخرج منهم عبوديتين اثنيتين:

إحداهما: الشكر في الرّخاء.

والثانية: عبودية الصبر عند البلاء.

ولا يمكّن من ذلك إلا العبد المؤمن كما جاء في «صحيح مسلم» عن صويب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ أن النبي

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، إن أصبته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن**»، وقد تبدّىٰ هذ ظاهرا في حال يعقوب ويوسف عليهما الصلاة والسلام.

ومنها: جواز إخبار الإنسان بما يجد، وما هو فيه من مرض أو فقر أو غيرهما علىٰ غير وجه التسخط، لقول إخوة يوسف: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ [يوسف:٨٨] وأقرهم يوسف علىٰ ذلك.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا **الفائدة الحادية عشرة** في هذا الفصل من فوائد قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهي: جواز إخبار الإنسان بما يجد، لا علىٰ وجه التسخط والجزع، فذلك لا يكون من الشكوىٰ لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما سلف قريبا.

ومنها: فضيلة التقوىٰ والصبر.

وأن كل خير في الدنيا والآخرة فمن آثارهما، وأن عاقبة أهلهما أحسن العواقب، لقوله: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف].

وإن إخبار العبد من نفسه بحصول التقوىٰ والصبر إذا كان صدقا وفي ذلك مصلحة من باب التحدث بنعمة الله؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحىٰ] فهي تشمل نعم الدنيا ونعم الدين، وأن الله يجمع للمتقين بين خير الدنيا والآخرة، كما في هذه الآية والآية السابقة وهي قوله: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [يوسف]، وأنه ينبغي علىٰ العبد أن يتذكر في حال الرخاء والسرور حالة الحزن والشدة، ليزداد شكره وثناؤه علىٰ الله، ولهذا قال يوسف: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ [يوسف:١٠٠].

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا الفائدة الثانية عشرة من فوائد هذا الفصل المتعلِّقة بقصة يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهي: فضيلة التقوىٰ والصبر، وأنّ كل خير في الدنيا والآخرة من آثارهما وأن عواقب أهلهما أحسن العواقب، وفي ذلك آيات وأحاديث كثيرة.

ثم ذكر أن إخبار العبد عن نفسه في حصول التقوىٰ والصبر إذا كان صدقًا وفي ذلك مصلحة، هو من باب التحدث بنعمة الله، فلا بد من اجتماع شرطين اثنين ذكرهما المصنف:

أحدهما: أن يكون خبره صادقا، فلا يصف نفسه بالتقوىٰ والصبر إلا مع الصدق في ذلك.

والثاني: أن يكون في ذلك مصلحة راجحة.

ويبقىٰ شرط ثالث: وهو أمن العبد علىٰ نفسه الفتنة.

فإن اجتمعت هذه الشروط الثلاثة، ثم ذكر العبد ما ذكر عن نفسه من تقوىٰ وصبر كان ذلك من جملة التحدث بنعمة الله المأمور به في قوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾، وهذا يشمل نعم الدنيا ونعم الآخرة.

ثم ذكر أن ينبغي للعبد أن يتذكر في حال الرخاء والسرور حال الحزن والشدة ليزداد شكره لربه وثناؤه عليه.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يتضرع إلىٰ الله دائما في تثبيت إيمانه، ويعمل الأسباب لذلك: يسأل الله حسن الخاتمة وتمام النعمة، ويتوسل بنعمه الحاصلة إلىٰ ربِّه[1] أن يتمها عليه، ويحسن له العاقبة، كما قال يوسف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف]، وليس هذا من يوسف تمنيا للموت، كما ظنه بعضهم؛ بل هو دعاء لله أن يحسن خاتمته ويتوفاه علىٰ الإسلام، كما يسأل العبد ربه ذلك كل وقت.

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا فائدة **الثالثة عشرة** المنتظمة في هذا الفصل من فوائد سورة قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهو أنه ينبغي للعبد أن يتضرع إلىٰ الله دائما في تثبيت إيمانه، ويأخذ بالأسباب الموصلة إليه ويسأل ربه حسن الخاتمة وتمام النعمة؛ كما وقع ذلك من يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إذ قال: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾، وليس هذا من يوسف تمنيا للموت وإنما سؤال لله عَزَّوَجَلَّ أن يثبته علىٰ الإسلام حتىٰ يتوفاه عليه، وكما كان هذا يقع من نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما روىٰ الترمذي وغيره بسندٍ حسن من حديث أم سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا لما سئلت: ما أكثر دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فقالت: «**يا مقلِّب القلوب ثبت قلبي علىٰ دينك**»، ثم ذكرت أنها قالت لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما أكثَر دعائك «**يا**

---

(١) الهامش الذي عندكم عند (ويتوسل بنعمه الحاصلة إلىٰ ربه) مكتوب رقم (٢)، وأن هذا ليس موضعه هنا، موضعه في الصفحة التي تليها في السطر الثاني عند كلمة (ووعد في المستقبل) هذا محل الهامش، تنقلونه هناك حتىٰ يفهم الكلام.

مقلب القلوب ثبت قلبي علىٰ دينك»؟، فقال: «**إنّ القلوب بين أصبعي من أصابع الرحمن، فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ**»، فينبغي أن يكون من دعاء العبد الذي يلْهج به كثيرا هو دوام سؤال الله عَزَّوَجَلَّ أن يثبت قلبه علىٰ الدين.

ومنها: ما من الله به علىٰ يوسف من حسن عفوه عن إخوته، وأنه عفا عما مضىٰ ووعد في المستقبل ألا يثرّب عليهم، ولا يذكر منه شيئا لأنه يجرحهم ويحزنهم، وقد أبدوا الندامة التامة ولأجل هذا قال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ [يوسف:١٠٠]، ولم يقل: من بعد أن نزغهم، بل أضاف الفعل إلىٰ الشيطان، الذي فرَّق بينه وبين إخوته. وهذا من كمال الفتوّة وتمام المروءة.

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا **الفائدة الرابعة عشرة** المنتظمة في هذا الفصل من فوائد قصة يوسف عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهي: **ما اتفق ليوسف عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من نعمة الله عَزَّوَجَلَّ عليه إذ أحسن العفو عن إخوته، فعفا عما مضىٰ ووعدهم أن لا يثرب عليهم ولا يذكر شيئًا يؤذيهم ويحزنهم من بعد أن نزغ** الشيطان بينهم، ثم تلطّف في العبارة إذ قال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ فلم يقل: من بعد أن نزغهم الشيطان، بل أضاف الفعل إلىٰ الشيطان، سعيًا في تطمين نفوسهم وإبعادهم عن ذكر ما كانوا قد ألمّوا به من ذنب وهذا من كمال الفتوّة يعني: من كمال مكارم الأخلاق وتمام المروّة.

ومنها: ما في هذه القصة العظيمة من البراهين علىٰ رسالة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ حيث قصّها علىٰ الوجه المطابق، وهو لم يقرأ من الكُتب السابقة شيئا، ولا جالس من له معرفةٌ بها، ولا تعلم من أحد، إن هو إلا وحي أوحاه الله إليه. ولهذا قال: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ﴾ [هود:٤٩] كما ذكر الله هذا المعنىٰ في قصة موسىٰ وغيره من الأنبياء، لأن الغيوب نوعان؛ أمور سابقة قد اندرس علمها نبأه الله بها، وأمور مستقبلة قد نبأه الله بها قبل أن تقع فوقعت، ولا تزال تقع شيئا بعد شيء مطابقة لما أخبر به صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ في كتاب الله وفي سنة رسوله، وكلها براهين علىٰ رسالته.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا **الفائدة الخامسة عشرة** وختم بها الفصل السّادس، وفيها بيان ما اشتملت عليه هذه القصة من دليل من دلائل نبوة محمّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه أورد هذه القصة علىٰ الوجه المطابق لواقعها من غير أن يكون قد قرأ في كتاب سابقٍ ولا جالس أحدًا له معرفة بالكتب السابقة ولا

تعلم منه، وإنما هو وحي أوحاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إليه، فأخبر صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن غيبٍ سابق، كما وقع منه الأخبار عن غيب مستقبل، وكل هذا من دلائل النبوة.

الفصل السابع

وفي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ [يوسف:٥٣] دليل علىٰ أن هذا وصف النفس من حيث هي، وأنها لا تخرج عن هذا الوصف إلا برحمة من الله وعناية منه، لأن النفس ظالمة جاهلة، والظلم والجهل لا يأتي منهما إلا كل شر، فإن رحم الله العبد ومن عليه بالعلم النافع وسلوك طريق العدل في أخلاقه وأعماله خرجت نفسه من هذا الوصف، وصارت مطمئنة إلىٰ طاعة الله وذكره، ولم تأمر صاحبها إلا بالخير، ويكون مآلها إلىٰ فضل الله وثوابه. قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ۝٣٠﴾ [الفجر]، فعلىٰ العبد أن يسعىٰ في إصلاح نفسه وإخراجها من هذا الوصف المذموم، وهو أنها أمّارة بالسوء، وذلك بالاجتهاد وتخلقها بأحسن الأخلاق وسؤال الله علىٰ الدوام، وأن يكثر من الدعاء المأثور: اللَّهُمَّ اهدني لأحسن الأعمال والأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئ الأعمال والأخلاق، لا يصرف عني سيئها إلا أنت.

ذكر المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا فصلا سابعا نظم فيه جملة من فوائد قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ صدرها ببيان ما اتصفت به النفس من الأمر بالسوء، وأنها لا تخرج عن هذا الوصف إلا برحمة الله عَزَّوَجَلَّ؛ ذلك أن النفس مطبوعة علىٰ الظلم والجهل كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝٧٢﴾ [الأحزاب]، ومن كان متَّصفا بالظلم والجهل فإنه لا يأتي منه إلا الأمر السيئ إلا أن يتداركه الله عَزَّوَجَلَّ برحمته، فيُخرجه من الظلم إلىٰ العدل ومن الجهل إلىٰ العلم، فإذا اجتمع في القلب العلم والعدل خرج الإنسان من ظلمة أمر نفسه له بالسوء إلىٰ نور هدايتها إلىٰ الخير، فاطمأنت نفسه بذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بطاعته، فالعبد مأمورٌ أن يسعىٰ في فكاك نفسه من هذا الوصف، وأن يصلحها بإخراجها من هذه الحال بطريق العلم والعدل والتخلُّق بأحسن الأخلاق وسأل الله عَزَّوَجَلَّ ودعائه علىٰ الدوام والإكثار من الدعاء بالمأثور الذي ذكره المصنِّف.

❀❀◊❀❀

وفي تضاعيف القصة فضيلة العلم من وجوه كثيرة، وبيان أنه سبب الرفعة في الدنيا والآخرة، وسبب صلاح الدِّين والدنيا. فيوسف صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم ينل ما نال إلا بالعلم، ولهذا قال له أبوه: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف:٦] وامتن عليه وقت مكثه عند عزيز مصر بالتجربة والعلم، وحاز مقام الإحسان بالعلم، وخرج من السجن في حال العز والكرامة بالعلم، وتمكن

عند ملك مصر واستخلصه لنفسه حين كلمه وعرف ما عنده من العلم ودبر أحوال الخلق في الممالك المصرية بإصلاح دنياهم وحسن تدبيره في حفظ خزائن الأرض وتصريفها وتوزيعها بالعلم، وعند نهاية أمره توسل إلىٰ ربه أن يتولاه في الدنيا بالعلم، حيث قال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف] ففضائل العلم وثمراته الجليلة العاجلة والآجلة لا تعد ولا تحصىٰ.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في هذا الفصل **فائدة ثانية** من فوائد قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هي: بيان عظيم رُتبة العلم وجليل فضيلته، وهذه الفائدة مستنبطة من وجوه كثيرة في هذه السورة ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ طرفًا منها يجمعها أن يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ خرج من أحوال التردي إلىٰ أحوال الكمال في العلم كخروجه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من السجن والأسر إلىٰ الأمن والإطلاق، وخروجه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من الرِّق والذُّل إلىٰ العزّ والملك في أحوالٍ أخرىٰ وقعت له عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ترقّىٰ بها إلىٰ المقامات العالية، وكان السبب الذي تعلق به فأوصله إليها هو العلم، وفضائل العلم لا تعدّ ولا تحصىٰ، وقد صدر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ كتابه «مفتاح [دار] السعادة» ببابٍ طويل الذيل عظيم الفائدة ذكر فيه فضيلة العلم من وجوه كثيرة تزيد عن أربعين بعد المائة كلها دالة علىٰ فضيلة العلم وعلو رُتبته، وفضائل العلم لا تعد ولا تحصىٰ كما قال المصنِّف.

وفيها أن شفاء الأمراض، كما تكون بالأدوية الحسية تكون بأسباب ربانية، بل يحصل بهذا النوع من أنواع الشفاء ما لا يحصل بغيره. فيعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قد ابيضت عيناه من الحزن وذهب بصره، فجعل الله شفاءه وإبصاره بقميص يوسف حين ألقاه علىٰ وجهه، فارتد بصيرا لما كان فيه من رائحة يوسف الذي كان داء عينيه من حزنه عليه، فصار شفاؤه الوحيد مع لطف الله في قميص جسده. ومن قال: إن القميص من الجنة فليس عنده بذلك دليل، والله قادر علىٰ أن يشفيه من دون سبب؛ ولكنه حكيم، جعل الأمور تجري بأسباب ونظامات قد تهتدي العقول إلىٰ معرفتها وقد لا تهتدي. ونظيرُ ذلك أيوب صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وصل به المرض والضر إلىٰ حالة تعذر منها الشفاء وأعيت الأطباء، فحيث أراد الله شفاءه أمره أن يركض برجله الأرض فأنبع له عينا باردة وأمره أن يشرب منها ويغتسل، فأذهب الله ما في باطنه وظاهره من هذا الضرر، وعاد كأحسن ما أنت راء. قال تعالىٰ: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾ [ص:٤٢]، فهو تعالىٰ يشفي العباد بأدوية وأسباب حسية وبأسباب ربانية معنويّة: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ

بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام:١٧] كما أنه تعالىٰ يوجد الأشياء بأسباب حسية معلومة وبأسباب ربّانية لا تهتدي العقول إليها، كما في معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء وآياته النفسية والكونية، وهو المحمود علىٰ هذا وعلىٰ هذا.

ذكر المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في هذه الجملة **فائدة ثالثة** منتظمة في هذا الفصل من فوائد قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهي: **الإرشاد إلىٰ تعاطي الأسباب الربانية التي تحصل بها دفع الأمراض والشفاء من العلل**، فإنه كما تشفىٰ الأمراض بالأدوية الحسية فإنه هناك أسبابا ربانية إذ وُفِّق إليها كانت سببا لشفائه كما وقع ليعقوب عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إذ جعل الله شفاءه بقميص يوسف حين أُلقي علىٰ وجهه فوجد ريح يوسف فارتد بصيرا، وقد عقد ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ فصولًا نافعة في تقرير هذا الأمر في الجزء الرابع من «زاد المعاد» وهو الذي يُطبع مفردا باسم «الطب النبوي»، فذكر جملة من الأدوية الإلهية التي يُستشفىٰ بها من العلل.

ومنها جواز سؤال الخلق، خصوصًا الملوك عند الضرورة لقول إخوة يوسف: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [يوسف:٨٨]، فإنهم سألوا المحاباة في المعاملة والصدقة بدون عوض، وإنما قلت: خصوصًا الملوك لأن الملوك لا يسألون من أموالهم الخاصة، وإنما يسألون من بيت المال الذي هو للمصالح العمومية، وأهم المصالح دفع ضرورة المضطرين.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا **فائدة رابعة** في هذا الفصل من فوائد قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهي: جواز سؤال الخلق خصوصًا الملوك عند الضرورة كما وقع من إخوة يوسف، فإن الأصل أن العبد مستغنٍ بسؤال الله عن سؤال خلقه؛ كما أرشد نبي الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابن عباس إلىٰ ذلك كما في الحديث المخرّج عند الترمذي في وصيته له وفيه «**إذا سألت فسأل الله**» وسيأتي تقرير هذا المعنىٰ في «نور الاقتباس» بإذن الله تعالىٰ، وإنما أُذن في سؤال الملوك لأنهم لا يسألون من أموالهم الخاصة، وإنما يسألون من بيت المال الذي هو موضوعٌ في هذه الشريعة وغيرها للمصالح التي تعمّ الناس جميعا، وأهم المصالح دفع ضرورة المضطرين.

ومن فوائد القصة أن الجهل - كما يطلق علىٰ عدم العلم - فإنه يطلق علىٰ عدم الحلم، وعلىٰ

ارتكاب الذنب، لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف]، وأما قوله: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يوسف] ليس المعنىٰ في ذلك عدم العلم وإنما هو عدم العمل به، واقتحام الذنوب، ومنه قول موسىٰ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء:١٧]، وكلّ من عصىٰ الله فهو جاهل باعتبار عدم العمل بالعلم، لأنّ العلم الحقيقي ما زال الجهل به وأوجب العمل.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا **فائدة خامسة** من فوائد قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهي: **تحقيق** معنًىٰ ثان للجهل يخفىٰ علىٰ كثير، فإنَّ الجهل يطلق في الشرع علىٰ معنيين:

أحدهما: عدم العلم.

والآخر: ترك العمل بالعلم.

فإنَّ كل عاصٍ له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جاهلٌ بهذا المعنىٰ وقد نقل أبو العالية الرِّياحي ثم شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم في صدر «إغاثة اللهفان» إجماع الصحابة علىٰ أن كل من عصىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهو جاهلٌ؛ يعني باعتبار تركه العمل بالعلم، فترك العمل بالعلم جهل كما عدم العلم جهلٌ أيضا.

ومنها قوله تعالىٰ: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾ [يوسف] استدل به علىٰ ثلاثة أبواب من أبواب العلم: باب الجعالة، وباب الضمان، وباب الكفالة؛ لأن قوله: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ من نوع الجعالة، وهو أن يجعل شيئا معلوما أو مقاربا للمعلوم كحمل البعير؛ لأنه متعارف لمن يعمل له عملا معلومًا وعملًا مجهولًا وهي جائزة لما فيها من مصلحة الجاعل والعامل، وقوله: ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ أي: ضامن وكفيل، وهي من عقود التوثقة بالحقوق التي يتم بها توسيع المعاملات وإصلاحها.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا فائدة سادسةً منتظمة في هذا الفصل من فوائد قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهي: أنّ آية من سورة يوسف استُدل علىٰ ثلاثة أبواب من أبواب العلم؛ يعني الأحكام الشرعية هي: باب الجعالة، والضمان، والكفالة، فقد انتظم في هذه الآية الدليل في هذه الأبواب جميعا، فقوله تعالىٰ: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ من نوع الجعالة يعني: ما يُجعل لأحد في مقابل سعر يفعله،

كما أنّ في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ دليلٌ للضمان والكفالة، فالضمان للحق، والكفالة لصاحب الحق، فهو إما أن يضمن الحق الذي علىٰ غيره، وإما أن يكفل بدن المضمون فيكون كفيلا له.

ومنها: أن العمل بالشريعة فيه إصلاح الأرض والبلاد، واستقامة الأمور؛ والعمل بالمعاصي من سرقة وغيرها فيه فساد ذلك. لقولهم: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [يوسف]، وكم في القرآن من التصريح أن العمل بالمعاصي ومخالفة الرسل فساد للأرض، ومتابعة الرسل هو الصلاح المطلق، صلاح الدِّين والدنيا.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا فائدة سابعة في هذا الفصل من فوائد قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هي: أن العمل في الشريعة فيه إصلاح للأرض والبلاد، واستقامة للأمور، وأن المعاصي بضد ذلك، فإذا فشت المعاصي بين الناس حال ذلك إفسادا في الأرض؛ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الروم:٤١]؛ يعني بفعل المعاصي، فكما أنّ الملوّثات الطبيعية تفسد علىٰ الناس حياتهم فكذلك فإن المعاصي والسيئات تفسد علىٰ الناس حياتهم، والفرق بينهما أنّ الأول فساد حسي، والثاني إفساد معنوي، ولا ريب أن الإساد المعنوي أعظمُ من الإفساد الحسي، وبضد ذلك فإن الحسنات سببٌ لصلاح حال الناس في دنياهم وأخراهم.

ومنها: الدلالة علىٰ الأصل الكبير الذي أعاده الله وأبداه في كتابه: أنّ لكل نفس ما كسبت من الخير والثواب، وعليها ما اكتسبت من الشّر والعقاب، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرىٰ، لقوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [يوسف]

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا **فائدة ثامنة** في هذا الفصل من فوائد قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهي: تحقيق قوله تعالىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدثر] فكل عاملٍ مرتهن بما عمل من عمل إن خيرا فخير وإن شرا فشر.

ومنها: الحث علىٰ فعل الأسباب الجالبة للخيرات والحافظة من الكريهات؛ وفي القصة مواضع تدل علىٰ هذا الأصل الكبير؛ وتمام ذلك أن يقوم بالأسباب مستعينا بالله، واثقا به؛ وقد عمل يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الأسباب التي يقدر عليها في استحفاظ أولاده ليوسف، ثم لأخيه حين أرسله معهم، فقال مع

ذلك: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَـٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٦٤﴾ [يوسف] وكذلك على العبد إذا همته المصائب وحلت به النكبات عليه أن يصبر ويستعين بالله على ذلك. قال يعقوب صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ حين عمل إخوة يوسف ما عملوا بيوسف، وحلّت به المصيبة الكبرى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾ [يوسف]، وذلك أن الصبر على الطاعات. والصبر عن المحرمات والصبر على المصيبات لا يتم وينجح صاحبه إلا بالاستعانة بالله، وألا يتكل العبد على نفسه. قال يوسف: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣﴾ [يوسف].

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا فائدة تاسعة ختم بها هذا الفصل فيها: بيان أن من مقصود الشرع عند الحث على فعل الأسباب الجالبة لخير، والحافظة من الكريهات، أن يستعين العبدُ بربّه سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في تتميم هذه الأمور كما عمل يعقوب عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الأسباب التي يقدر عليها في استحفاظ أولاده يوسف ثم لأخيه، وقال مع ذلك: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَـٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٦٤﴾[يوسف] فاستعان بربه، وكذلك لما وقع ما وقع من إخوة يوسف مع أخيهم قال: ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾ [يوسف]، فلا يتوقف العبد إلى ما يريد من خير أو دفع ما يخشاه من ضر وشر بعد بذل الأسباب ألا بصدق الاستعانة على الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وتفويض الأمر إليه.

الفصل الثامن

ومن فوائد القصة الإرشاد إلىٰ طريق نافع من طرق الجدال، والمقابلة بين الحق والباطل، وهو بيان ما في الحق من الخير والمنافع العاجلة والآجلة، وما في الباطل من ضد ذلك.

قال تعالىٰ في دعوة يوسف للتوحيد: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩﴾ [يوسف]، فذكر ما في الشرك من القبح وسوء الحال واتّباع الظنون الباطلة، وأن كل طائفة من الشرك لهم معبود، إما نار أو صنم أو قبر أو ملك أو ميت، أو غير ذلك من المعبودات المتفرقة التي لا تملك لنفسها ولا لأهلها نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورًا. وكل طائفة تضلل الأخرىٰ، وكلهم ضالون هالكون فيها، فهل هذه الأرباب والمعبودات خير أم الله الواحد القهار؟ فذكر له ثلاثة أوصاف عامة عظيمة: أنه الله الذي له الأسماء والصفات العليا، ومنه النعم كلها وبذلك استحق أن يكون الله المألوه، إله أهل الأرض وأهل السماء، وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله، وأنه الواحد المتفرد بكل صفة كمال، المتوحد بنعوت الجلال والجمال، الذي لا شريك له في شيء من الأفعال؛ وأنه القهار لكل شيء؛ فجميع العالم العلوي والسُّفلي كلهم مقهورون بقدرته، خاضعون لعظمته، متذلّلون لعزته وجبروته، فمن هذه صفاته العظيمة هو الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده، لا شريك له.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا **فصلا ثامنًا** نظم فيه جملةً من فوائد قصة يوسف عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ صدرها رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ ببيان طريقٍ نافع للجدال والمقابلة بين الحق والباطل؛ وهو: بيان ما للحق من خير والمنافع العاجلة والآجلة وما في الباطل من ضد ذلك، وقد ذكر هذا الطريق قبل المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ المُقبلي في «إثار الحق علىٰ الخلق» فذكر: أن مما يزيد الأمر الشريف شرفًا ذكر خسّة ما يقابله، ومما يزيد الحق قوة ذكر ضعف ما يقابله من الباطل.

ثم استدل علىٰ تقرير ذلك بهذه الآية من سورة يوسف، فإن الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قرّر قبح الشرك وسوء حاله بذكر عظيم ما يقابله من أوصافٍ للرب سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ توجب توحيده؛ فاتصف الله عَزَّوَجَلَّ بكونه إلهًا واحدا قهارا وهذه الأوصاف العظيمة كما بينها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ توجب شرف التوحيد ورفعة الحقّ الذي فيه، ويقابل ذلك بيان خسّة الشرك وبطلان أدلة أهله ووهاء شبهاتهم.

ومنها: أن الدّين المستقيم، الذي عليه جميع الرسل وأتباعهم هو عبادة الله وحده لا شريك له، لقوله: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ [يوسف:٤٠] فهو الدين المستقيم،

المقيم للعقائد والأخلاق والأعمال، الذي لا تستقيم أمور الدّين والدنيا إلا به.

ذكر المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا فائدة ثانية فيها: بيان أن الدين المستقيم الذي عليه جميع الرسل وأتباعهم هو عبادة الله وحده لا شريك له؛ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ يعني: المستقيم المقيم للعقائد والأخلاق الأعمال التي لا تستقيم أمور الدنيا والدين إلا بها، ونظير هذه الآية قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البيّنة] يعني: وذلك هو الدِّين المستقيم.

ومنها: وجوب الاعتراف بنعم الله الدينية والدنيوية، لقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾ [يوسف:٣٨] فهو الذي من بالعافية والرزق وتوابع ذلك، وهو الذي منّ بنعمة الإسلام والإيمان والطاعة وتوابع ذلك، فعلىٰ العبد أن يعترف بها بقلبه، ويتحدّث بها ويستعين بها علىٰ طاعة المنعم.

ذكر المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا فائدة ثالثة منتظمة في هذا الفصل من فوائد قصة يوسف وهي: وجوب الأعتراف بنعم الله الدينية والدنيويةكما قال هنا ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾ وهذا ركن من أركان ذكر الله عَزَّوَجَلَّ فيجب علىٰ العبد أن يعترف بما أوصىٰ الله عَزَّوَجَلَّ عليه من النعم، وبما من عليه من الفضائل كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سبأ].

ومنها أن الإحسان في عبادة الله والإحسان إلىٰ العباد سبب ينال به العلم وتنال به خيرات الدنيا والآخرة؛ لقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٢٢﴾ [يوسف] وقوله: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٥٧﴾ [يوسف] فجعل الله الإحسان سببا لنيل هذه المراتب العالية.

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا **فائدة رابعة** من فوائد قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ تضمّنت بيان سبب ينال به العلم وتنال به خيرات الدنيا والآخرة، وهو الإحسان في عبادة الله عَزَّوَجَلَّ، والإحسان إلىٰ العباد، وتقدّم أن معنىٰ الإحسان كله يرجع إلىٰ الإتقان، فإذا أتقن العبد عبادة ربه، وأتقن معاملة بخلقه كان ذلك من أسباب وصول الخير إليه، ومن جُملته العلوم الشرعية.

ومنها أنّ النظر إلىٰ الغايات المحبوبة يهوّن المشاق المعترضة في وسائلها، فمتىٰ علم العبد عاقبة

الأمر، وما يؤول إليه من خير الدنيا والآخرة هانت عليه المشقة، وتسلّىٰ بالغاية لقوله تعالىٰ: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٥﴾ [يوسف] فأوحىٰ إلىٰ يوسف في هذه الحال المزعجة أن الأمر سيكون إلىٰ خير وسعة، وبعد هذه الإهانة الصادرة من إخوتك لك ستكون لك الأثرة عليهم والعاقبة الحميدة؛ وفي هذا من اللطف والتسلية وتخفيف البلاء ما هو من أعظم نعم الله علىٰ العبد، ولهذا المعنىٰ الجليل يذكر الله عباده عند المشاق والأمور المزعجة ما يترتب علىٰ ذلك من الثواب والخير والطمع في فضله. قال تعالىٰ: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ﴾ [النساء:١٠٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ﴾ [يوسف:١٥] دليل علىٰ رجوعهم كلهم إلىٰ رأي من قال: ﴿لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾ [يوسف:١٠]، كما أن قوله: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ﴾ [يوسف] دليل علىٰ أن النسوة ساعدن امرأة العزيز علىٰ يوسف، وجعلن يغرينه بهذا العمل، فبعد ما رأين من جمال يوسف الباهر ما رأين أصبحن لامرأة العزيز مساعدات بعد أن كن قبل ذلك عاتبات عليها بقولهن: ﴿ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٣٠﴾ [يوسف].

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا **فائدة خامسة** منتظمة في هذا الفصل من فوائد قصة يوسف عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهي: أن النظر إلىٰ الغايات المحبوبة يهون المشاق التي تعرض في الطريق، فإن العبد في سيره إلىٰ ربه سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد يعرض له من المشاق ما يكون شديدا؛ لكنه إذا ذكر نهاية المآل وغاية الوصل إلىٰ مرضاة الله عَزَّوَجَلَّ والفوز برضاه، هون عليه ذلك هذه المشاق، وقد وقع هذا ليوسف عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فإنه لما ذكر ما يؤول إليه أمرُه من الرفعة كان ذلك مهوّنا لمساق سيره إلىٰ ربه عَزَّوَجَلَّ وتقلّبه فيما أصابه من البلاء ابتداءً من أبعاده عن أبيه حتىٰ رفعه الله عَزَّوَجَلَّ مالكا في مصر.

وذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عَزَّوَجَلَّ في ذلك قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ﴾ [النساء:١٠٤]، فسلّىٰ المؤمنين بما يصيبهم من الأذىٰ بأن الكفار يألمون كما تألمون، وأنكم تزيدون عليهم بأنكم ترجون من الله مثوبة وجزاءً لا يرجوه أولئك.

وبقية الكلام وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ﴾ إلخ. لا يظهر له تعلق بالكلام السابق أو لا؟

الذي يظهر أن هذا الكلام متعلق بالمشورة بالشر وستأتي معنا، ووضعه هنا إشكال إما أن تراجع النسخة المخطوطة أو تراجع النسخة التي طبعت قديما حتىٰ يتبيّن معناه.

ومنها: أن العقود تنعقد بما يدل عليها من قول وفعل، لا فرق بين عقود التبرعات وعقود المعاوضات، لأن يوسف صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ملك إخوته بضاعتهم التي اشتروا بها ميرتهم من حيث لا يشعرون، ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم في رحالهم، الآية، وذلك من دون إيجاب وقبول قولي، لأن الفعل والرضىٰ يدل علىٰ ذلك.

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا **فائدة سادسة** تتعلق بالعقود بين فيها: أن العقد ينعقد بما دل عليه من قول وفعل، لا فرق بين عقود التبرعات التي تكون في غيرِ مقابل، ولا عقود المعاوضات تشتمل علىٰ العوض والمجازاة، كما وقع من يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فإنه ردّ بضاعتهم إليهم ووضعها برحالهم فانعقد العقد بينه وبينهم من غير وجود إيجاب وقبول قولي، وكان الفعل مغنيًا في صحة العقد عن القول.

الفصل التاسع

إذا قيل: كيف خفي موضع يوسف علىٰ يعقوب وما بينه وبينه إلا مسافة قليلة مع طول المدة وقوة الداعي الملح وعلمه أنه علىٰ الوجود وحرصه الشديد علىٰ لقياه؟

فالجواب: ليس ذلك بغريب علىٰ قدرة الله، فإن الأسباب، وإن قويت جدا، لا خروج لها عن قضاء الله وقدره؛ فإن الله تعالىٰ أراد ألا يحصل الاجتماع إلا في الوقت الذي أجله والحالة التي أرادها، لما له في ذلك من الحكم العظيمة، ومتىٰ أراد الله شيئا في وقت مخصوص قدر من الأسباب الحسية أو المعنوية ما يمنع حصوله قبل ميقاته، كما يقدّر من الأسباب ما يحصل به ما أراد؛ فالأسباب بيد العزيز الحكيم. وليس هذا بأغرب من قضية بني إسرائيل في التيه، وهم أمة عظيمة، والتيه مسافةٌ قصيرة، وهم بين أظهري قرىٰ ومدن كثيرة. والمدة أربعون سنة، لم يهتدوا طريقا إلىٰ مقصدهم، ولم يتيسّر لهم من يرشدهم إلىٰ قصدهم. وكذلك أصحاب الكهف مكثوا في كهفهم ثلثمائة وتسع سنين وهم في غار قريب من مدينة عظيمة لم يصل إليهم أحد في هذه المدة الطويلة لأمر يريده الله. فهذه الأمور وما أشبهها دليل علىٰ كمال قدرة الله وحكمته، مع أن يوسف صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقي مدّة الله أعلم بها وهو في بيت العزيز، ثم مدة وهو في السجن، ثم ترقّىٰ إلىٰ تدبير الملك. ومتىٰ يخطر ببال أحد أن ينتقل من الرق والسجن إلىٰ الملك العظيم؟ ثم إنه وقت توليه يغلب علىٰ الظن أنه اشتهر عند الناس باسم المنصب والوزير للملك، فلا يكاد أحد يعرف اسمه، كما هو الغالب علىٰ الملوك وأشباههم، ولهذا تردد إخوته عليه فعرفهم وهم لا يعرفونه، لما هو فيه من بهجة الولاية؛ وأيضا قد فارقوه وهو صغير ولم يروه إلا بعد ما كبر. ومعلوم أن أوصاف الإنسان تتغير إذا وصل إلىٰ سن الكهولة، والله أعلم.

هذا من جهة يعقوب وأولاده، أما من جهة يوسف فإنه قد علم وقصد التأخير ليبلغ الكتاب أجله، ولهذا تردد عليه إخوته وقد عرفهم ولم يعرفهم بنفسه، ولم يستدع أبويه وأهله إلا في نهاية الأمر.

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في هذا الفصل التاسع فائدة جليلة في حل أشكال كثير وهو: **خفاء موضع يوسف علىٰ يعقوب وما بينه وبينه إلا مسافة قليلة مع طول المدة التي قدّرها في ما سلف ثلاثين سنة،** وقوة الداعي الملح لسؤال عنه، وعلمِه أنه علىٰ الوجود وحرصه الشديد علىٰ لقياه، فأجاب المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في جواب جامع «أن المانع من ذلك كان هو تقدير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ»، فإذا قدر الله عَزَّوَجَلَّ شيئا لم يكن في الإمكان مهما اتخذ العبد من سبب أن يوصل إلىٰ خلافه، كما وقع هذا في عدة أحوال

كما اتفق لبني اسرائيل في تيههم وضياعهم في الصحراء مع كونهم بين أظهر مدن وقرىٰ كثيرة، وكما وقع هذا لأصحاب الكهف إذ مكثوا في كهفهم هذه المدة المديدة وهو بغار قريب من مدينة عظيمة، وكما وقع هذا في قصة فرض التيمم لما ضاع عقد عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا وكان تحت الجمل الذي تكون هي عليه، وكل هذا بسبب تقدير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ للوصول إلىٰ مراد أراده عَزَّوَجَلَّ، وهذا كله في حق يعقوب وأولاده، وأما يوسف فإنه علم وقصد التأخير ليبلغ الكتاب أجله كما أوحىٰ إليه ربُّه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

الفصل العاشر

قوله تعالىٰ عن يعقوب – في أول ما صنع أبناؤه بأخيهم يوسف –: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يوسف] وقوله عندما اشتد به الأمر، حين احتبس الابن الآخر: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾ [يوسف] في هذا دليل علىٰ أن أصفياء الله إذا نزلت بهم الكوارث والمصيبات قابلوها في أول الأمر بالصبر والاستعانة بالمولىٰ، وعند ما ينتهي وتبلغ الشدة منتهاها، يقابلونها بالصبر والطمع في الفرج والرجاء فيوفقهم الله للقيام بعبوديته في الحالتين؛ ثم إذا كشف عنهم البلاء قابلوا ذلك بالشكر والثناء علىٰ الله وزيادة المعرفة بلطفه لقول يوسف: ﴿يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف].

ذكر المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا فصلا عاشرًا يشتمل علىٰ فوائد عدة صدرها بفائدة عظيمة وهي: أن **أولياء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأصفيائه إذا نزلت بهم الكوارث والمصائب قابلوها بأول الأمر بالصبر والاستعانة بالمولىٰ**؛ لأن الصبر عند الصدمة الأولىٰ كما ثبت في الصحيح، فإذا تزايدت الشدة في مصابهم فزعوا إلىٰ الطَّمع في الصمد والرجاء بعد الصبر، لعِلْمهم بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد قرن الفرَج بالكرب، فكلّما اشتدت **الكربة** كلما قرب الفرج كما قال الشاعر:

اشـــــتدي أزمـــــة تنفرجـــــي قـــــد آذن فجـــــرك بــــــالبلج

يعني: صبحه، وكما وقع هذا من نبي الله يوسف عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فيما ذكره المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ.

ومنها: قوله تعالىٰ: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [يوسف:٧٩]

يدل علىٰ أنه لا تزر وازرة وزر أخرىٰ؛ ويؤخذ منه مسألة دقيقة، وهو أن الإحسان إنما يكون إحسانا إذا لم يتضمن فعل محرم أو ترك واجب، فإنهم طلبوا من يوسف أن يحسن إليهم بترك هذا الأخ أن يذهب إلىٰ أبيه ويأخذ أحدهم بدله؛ فامتنع و﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [يوسف] فالإحسان إذا تضمن ترك العدل كان ظلما، ولهذا كان تخصيص بعض الأولاد علىٰ بعض، وبعض الزوجات علىٰ بعض – وإن كان إحسانا إلىٰ المخصص والمفضل – لا يجوز لأنه ترك للعدل، وكذلك ما أشبه ذلك، والله أعلم.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا فائدة ثانية من فوائد قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهي: أن العبد لا يؤاخذ بجريرة غيره كما سبق تقريره بقوله تعالىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدثر]، ثم ذكر أنه يؤخذ منه مسألة دقيقة هو: **أن الإحسان إنما يكون إحسانا إذا لم يتضمن فعل محرم أو ترك واجب،** فإن إخوة يوسف لما طلبوا منه أن يحسن إليهم بترك أخيهم وأن يأخذ أحدهم بدلا منه، امتنع و﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾، والمؤاخذة لأخيه بهذه الصورة لأنه في الظاهر كان سارقا، وإن كان في الباطن علىٰ خلاف هذا الأمر، فلما كانت الصورة الظاهرة صورة السرقة امتنع يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من أخذ غيره، فكلام المصنف ليس فيه نظر علىٰ خلاف ما ذكره تلميذه المحشِّي، لأن كلام المصنف باعتبار الصورة الظاهرة؛ وذلك الأخذ في الصورة الظاهرة السارقة، فالإحسان حينئذ أن يؤاخذ هو دون غيره، فإذا ترك وأخذ غيره كان ذلك ظلمًا.

ومنها أن آيات الله أيما ينتفع بها السائل المستهدي الذي قصده معرفة الحق واتباعه لقوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾﴾ [يوسف] أما الغافلون المعرضون أو المعارضون المعاندون فإنه يصدق عليهم قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس] فالنظر في آيات الله المتلوة وآيات الله الكونية تنفع من قصدُه الحق، كما قال تعالىٰ: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة:١٦]، وكم في القرآن تقييد الانتفاع بهذا القيد كقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾[الحجر]، ﴿ءَايَٰتٌ [لِّلْمُوقِنِينَ] ﴿٢٠﴾﴾ [الذاريات]، ﴿لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران]، ﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾[آل عمران].

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا **فائدة ثالثة** في هذا الفصل من فوائد قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهي: أن آيات الله إنما ينتفع بها السائل المستهدي الذي يقصد الوصول للحق واتباعه، أما الغافل المعرض فإنه لا يوفق إلىٰ ذلك، وهذا مطرد في جميع آيات الله عَزَّوَجَلَّ الكونية والشرعية، فمن تدبر آيات الله الشرعية ونظر في آيات الله الكونية وهو يقصد الاستهداء والوصولَ إلىٰ الحق وفقه الله عَزَّوَجَلَّ إلىٰ ذلك فأنتفع من النظر بها، وأما كان معارضًا معاندًا فإنه لا تزيده هذه الآيات إلا رجزًا وعذابًا.

ومنها: أن المشاورة نافعة في كل شيء حتىٰ في تخفيف الشر، لهذا تشاور إخوة يوسف فيما يعملون به: قتل أو طرح في الأرض، ثم قر رأيهم علىٰ رأي من أشار عليهم بإلقائه في الجب ليلتقطه بعض

السيارة. [١] ففيه شاهد للقاعدة المشهورة: ارتكاب أخف المفسدتين أولىٰ من أغلظهما.

ولما قر القرار علىٰ أخذ من وجد الصُّواع في رحله وعالجوا يوسف علىٰ أخذ بدله لأجل ما يعلمون من مشقة أبيهم فامتنع خلصوا نجيا يتشاورون فقر رأيهم علىٰ رأي كبيرهم أن يبقىٰ هو في مصر يلاحظ مسألة أخيه وهم يذهبون يميرون أهلهم ويخبرون أباهم بالقضية وتفصيلها. ولا شك أن بقاءه في مصر أهون علىٰ يعقوب وأرجىٰ لتحصيل المطلوب وفيه نوع مواساة منه بأخويه يوسف وبنيامين، ولهذا قال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٨٣﴾ [يوسف].

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا فائدة ختم بها هذا الفصل وهي: أن نفع المشورة بكل شيء حتىٰ في تخفيف الشر، فإن إخوة يوسف لما تشاوروا في أمر أخيهم يوسف نقلوه من القتل إلىٰ الطرح في الجب، وعليه استقر رأيهم وأجمعوا أمرهم أن يجعلوه في ظلمة البئر.

وأما قوله المصنف ففيه شاهد للقاعدة المشهورة (ارتكاب أخف المفسدتين أولىٰ أغلظهما) ففيه نظر كما ذكره تلميذه المحشي، لأن هذه القاعدة إنما يفزع إليها عند إزدحام مفسدتين واضطرار العبد إلىٰ فعل أحدهما، وهم لم يضطروا إلىٰ فعل ذلك؛ بل كانوا ظالمين فيما فعلوا، ففي دعوىٰ كونها شهادة للقاعدة المشهورة فيه نظر.

ثم ذكر ما اتفق أيضا من رأيهم لما وقع قرار يوسف أن يأخذ من وجد الصاع في رحله وعالجوا يوسف علىٰ أخذ بدله لأجل ما يعلمون من مشقة أبيهم فأمتنع فقر رأيهم علىٰ رأي كبيرهم أن يبقىٰ هو في مصر يلاحظ مسألة أخيه أن يتابعوها، وهم يذهبون ويخبرون أهلهم ويخبرون أباهم بالقضية وتفصيلها.

---

(١) الكلام الذي سبق التنبيه عليه صفحة (٤٥) يصلح بعد كلمة (ليلتقطه بعض السيارة) قال: ثم قر رأيهم علىٰ رأي من أشار عليهم بإلقائه في الجب ليلتقطه بعض السيارة، وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ﴾ [يوسف]. هذا أفضل ما يكون موضعه، مع أنه الكلام يبقىٰ فيه نظر.

الفصل الحادي عشر

إنما لم يصدق يعقوب بنيه حين قالوا: أكله الذئب، وعملوا تلك القرائن المبررة لقولهم؛ لأن المعلوم لا يعارضه الشك والوهم، فإنه قد علم برؤيا يوسف، وربما بغيرها ما يؤول إليه حال يوسف من تمام النعمة التي تشمله وتشمل آل يعقوب؛ وفيها أيضا أنه لا ينبغي أن يغتر بمجرد صورة القرائن. ولما أتت إلىٰ شريح امرأة مع خصمها أرسلت عينيها بالبكاء فقال لشريح بعض الحاضرين: ما أظن البائسة إلا مظلومة. فقال شريح: ألم تسمع قصة إخوة يوسف إذ أتوا أباهم عشاء يبكون، هل كانوا مظلومين أو ظالمين؟ فكم حصل بمثل هذه التمويهات من الاغترار وقلب الحقائق. لهذا كان الأذكياء يجعلون كل احتمال علىٰ بالهم، وينظرون إلىٰ الأمور من جميع جهاتها ونواحيها.

وتدل القصة علىٰ أن الولايات الكبار والصغار لا بد لمتوليها أن يكون كفوا في قوته وأمانته وعلمه بأمور الولاية؛ لأن الملك لما كلم يوسف ورأىٰ من علمه وخبرته بالأمور وحسن نظره استخلصه لنفسه وقال: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝٥٤﴾ [يوسف] وقال يوسف: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝٥٥﴾ [يوسف] فعلل ذلك بكمال حفظه لما تحت يده وتصرفه، وكمال علمه بوجوه المستخرج والمنصرف، وحسن التدبير، وليس في هذا طلب الولاية ابتداء كما قاله كثير من أهل العلم؛ بل إنه لما رأىٰ الملك استخلصه ومكنه من الأمور، وأن الأمور كلها تحت طوعه وتدبيره، طلب من الملك تولِّي خزائن الأرض، فقط لأنها أهم، ولأنه يعلم أن ولايته لها أنفع للملك وللخلق، وهذا من كمال نصحه وصدق نظره.

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا الفصل الحادي عشر من هذا الكتاب ونظم فيه جملة من الفوائد المتعلقة بقصة يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ:

إحداها: أن يعقوب عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لم يصدق أبنائه إذ قالوا: ﴿أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [يوسف:١٤]، وعملوا تلك القرائن المسوغة لقولهم: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف:١٨]؛ لأنّ المعلوم لا يعارضه الشك والوهم، فإن يعقوب قد علم برؤيا يوسف أن الله عَزَّوَجَلَّ يمد في عمر يوسف حتىٰ يرفعه علىٰ جميع العالمين، ويتم نعمته عليه وعلىٰ آل يعقوب، فعلم أنهم كاذبون في هذه الدعوة.

ثم ذكر فائدة ثانية؛ وهو: أنه لا ينبغي أن يغتر الحاكم بمجرد صور القرائن؛ بل لا بد من النظر في حقائق الأمور وضربِ كل احتمالٍ ممكن أن يكون فيها.

ثم ذكر فائدة ثالثة، وهي: أن القصة تدل علىٰ أن الولايات الكبار والصغار لابد لمتوليها أن يكون كفأ في قوته وأمانته وعلمه في أمور الولاية، كما وقع هذا ليوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وإنما طلب يوسف الولاية علىٰ خزائن الأرض لعلمه بتعينه عليها كما اختاره جماعة من أهل العلم منهم القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في «تفسيره»، فإذا علم العبد بتعين ولاية عليه وأنها واجبة في حقه كان هذا من كمال النصح للمسلمين.

الفصل الثاني عشر

لما قص الله تعالىٰ علينا هذه القصة العجيبة بتفاصيلها قال في آخرها: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف] فنفىٰ عن هذا القرآن الكذب والخطأ من جميع الوجوه، ووصفه بثلاث صفات، كل واحدة منها فيها أكبر برهان علىٰ أنه من عند الله، وأنه الحق الذي لا ريب فيه.

والصفة الأولىٰ: أنه تصديق الذي بين يديه أي من الكتب المنزلة من السماء ومن كلام الرسل المعصومين الذي أوحىٰ الله إليهم، كما قال تعالىٰ: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الصافات]، فهذا القرآن الذي جاء به محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاء بالحق وهو الصدق في إخباره عن الله وعن ملائكته وعن اليوم الآخر، وعن جميع الغيوب السابقة واللاحقة، والعدل في أحكامه، فلا يأمر إلا بخير ولا ينهىٰ إلا عن الشر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥] صدقا في أخبارها عدلا في أحكامها وأوامرها ونواهيها. وأيضا، فإن هذا القرآن صدق جميع ما جاءت به الرسل وهيمن عليها، واتفق منها علىٰ الأصول العظيمة والشرائع الكبار العامة الشاملة؛ وأيضا فإن الرسل أخبروا وبشروا بمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبما جاء به محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فصدق مخبرها وحقت بشارتها.

الصفة الثانية: أنه تفصيل لكل شيء، وهذا شامل لجميع ما يحتاجه الخلق في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم الظاهرة والباطنة، وفي دينهم ودنياهم، فقد شرح الله به وفصل التوحيد والرسالة والجزاء، وجميع العقائد الصادقة الصحيحة شرحًا وتفصيلا عظيمًا لا يساويه في ذلك أي كتاب كان.

وفصل فيه الحث علىٰ حقائق الإيمان، وعلىٰ التخلق بالأخلاق الجميلة والتنزه من الأخلاق الرذيلة، وبين الطريق والأسباب التي يحصل حسنها والتي يُدفع به سيئها؛ كما فصل الشرائع الظاهرة والأعمال الصالحة والحلال والحرام والخير والشر. وفصل فيه جميع المقاصد والغايات النافعة، الدينية والدنيوية؛ وفصل ما يتوصل به إليها؛ وفصل فيه البراهين العقلية، كما فصّل فيه البراهين السمعية.

الصفة الثالثة: أنه هدىٰ ورحمة لقوم يؤمنون؛ يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام. إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، أي: لكل حالة قويمة وطريقة مستقيمة؛ يهدي لأحسن الأعمال والأخلاق، ويهدي لمصالح الدِّين كلها، ومنافع الدنيا التي بها يقوم الدين وتتم السعادة. والفرق بين الهدىٰ والرحمة أنّ الهدىٰ هو الوسائل والطرق الموصلة إلىٰ خيرات الدنيا والآخرة، والرحمة هي نفس

الخيرات والثواب العاجل والآجل. فسعادة الدنيا والآخرة متوقفة علىٰ اتباع هذا القرآن علما وعملا. وخص الله المؤمنين بالهدىٰ والرحمة لأنهم هم المنتفعون علىٰ الحقيقة، وبإيمانهم اهتدوا وزادهم الله هدىٰ ورحمة؛ فهذا القرآن بصائر للناس كلهم، بصرهم جميع ما يحتاجون إليه، فلم يبق خير إلا دلهم عليه، ولا شر إلا حذرهم منه، فقامت به الحجة علىٰ كل أحد. ولكنه هدىٰ ورحمة لقوم يؤمنون.

اللّٰهُمَّ تفضل علينا بالإيمان الصادق، واجعل هذا القرآن لنا هدىٰ ورحمة، إنك أنت القريب المجيب. وصلىٰ الله علىٰ محمد وسلم.

قال ذلك وكتبه العبد الفقير إلىٰ الله، عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي، غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين آمين. وافق الفراغ منه في صفر سنة ١٣٧٥ من الهجرة النبوية.

ختم المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هذا الكتاب بفصل ذكر فيه تفسير الآية التي جعلها الله عَزَّوَجَلَّ في آخر هذه السورة، ونظم فيها ثلاث صفات من صفات القرآن الكريم كل واحدة منهن فيها أكبر برهان علىٰ أن هذا الكتاب من عند الله عَزَّوَجَلَّ:

أوّلهن: أن هذا القرآن تصديق الذي بين يديه أي: من الكتب المنزلة من السماء، ومن كلام الرّسل المعصومين الذين أوحىٰ الله عَزَّوَجَلَّ إليهم، فما جاء به النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صدق في أخباره، وهو صدق في أخباره عما يكون بين يديه مما يتقدمه أو عما يكون بين يديه مما يعقبه ويخلفه كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام:١١٥] وفي القراءة الأخرىٰ ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ يعني: صدقا في الأخبار وعدلا في الأحكام، فإن هذا القرآن صدق جميع ما جاءت به الرسل من لدن آدم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلىٰ عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهذا دليلٌ علىٰ صدق نبوة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأن أخباره موافقة لأخبار أولئك المرسلين.

أما الصفة الثانية فهي: أن هذا الكتاب تفصيلا لكل شيء، فهو مشتملٌ علىٰ بيان ما به صلاح أحوال الناس في دينهم ودنياهم، وفيه ما يتعلق بالإلهيات والرسالة والمعاد؛ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩] يعني: جامعًا لبيان كل ما يُحتاج إليه، ومن لطائف التفسير التي ذكرها الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في «روح المعاني» في تفسيره عن بعض المفسِّرين ولم يسمِّه أن الله عَزَّوَجَلَّ لما وصف القرآن بكونه تبيانًا لكل شيء جاء بعد ذلك عقب هذه الآية بأجمع آية في القرآن الكريم كما قال بعض السلف وهي قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ

ﵟٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚﵞ [النحل:٩٠] إلىٰ آخر الآية، فلما كانت هذه الآية هي أجمع آية في قول بعض السلف ناسب أن تكون هذه الآية هي الآية اللاحقة للآية السابقة الدالة علىٰ أن هذه القرآن تبيانا لكل شيء في قوله: ﵟوَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖﵞ.

أما الصفة الثالثة فهي: أن القرآن هدىٰ ورحمة، وهذه الهداية والرحمة مختصة بالمؤمنين، فالقرآن رحمة لهم وهو لهم هدىٰ، أما غير فلا يهتدي به إلا هداية الحجة، أما هداية الانتفاع فهي مختصة بالمؤمنين وهي الهداية الكاملة، وهذا هو الجمع بين الآيات التي جاء فيها خص هداية القرآن بالمؤمنين والمتقين كم قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﵟذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ﵞ [البقرة] وبين الآية التي جاء فيها العموم كما في قوله تعالىٰ: ﵟإِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُﵞ [الإسراء:٩]، فهداية الحجة عامة لجميع الخلق، وأما هداية الانتفاع فإنها لا تكون إلا للمؤمنين فهم المنتفعون به علىٰ الحقيقة.

ثم ذكر المصنف فائدة لطيفة في الفريق بين الهدىٰ والرحمة، وفذكر أن **الهدىٰ هي الطرق الموصلة إلىٰ خير الدنيا والآخرة، وأن الرحمة هي الخيرات والثواب نفسه العاجل والآجل**، فسعادة الدنيا والآخرة متوقفة علىٰ اتباع هذا القرآن علما وعملا.

وهذا آخر التقرير علىٰ هذا الكتاب؛ وهو «الفوائد المستنبطة من قصة يوسف عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ».

والله أعلم. وصلىٰ الله وسلم علىٰ عبده ورسوله محمد وآله وصحبه أجمعين.